مِنْ بَلاغَةِ القُرْآنِ في وَصْفِ عِبَادِ الرَّحْمَنِ
فِي سُورَةِ (الفُرْقَانِ)

بقلم الدكتور

سعيد إسماعيل الهلالي

الأُستاذ المساعد في كليّة اللُّغة العربيّة

جَامِعَة الأَزْهَر فرع الزَّقازيق

(بحث محكم ومقبول للنشر بحولية كلية اللغة العربية بالزقازيق

العدد الثالث والثلاثين للعام الجامعي ١٤٣٤هـ-

١٤٣٥هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، أثنى على نفسه فقال:"الرّحمن الرّحيم"، واصطفى صنفاً من عباده شرّفهم بأن جعل عنوانهم عباده، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم "الرّحمن" ليرفع قدرهم، وجلَّى أوصافهم في كتابه الكريم، مدحاً لهم وثناءً عليهم، وترغيبًا في التّأسّي بهم.

والصَّلاة والسَّلام على إمام المتّقين ورحمة الله للعالمين،إمام عباد الرحمن وسيدهم، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه، ومَنْ سلك طريقهم إلى يوم القيامة والدّين.

أما بعد:

فقد شاءت إرادة الله (تباركت أسماؤه) أن يكون كتابه الكريم – دستور هذه الأمة ومنهج حياتها– كتابًا معجزًا ، يُوضع كلُّ حرف فيه بميزانٍ، وكلُّ كلمةٍ بحسابٍ، وكلُّ جملةٍ بحكمةٍ، تحدّى الله به أساطين الفصاحة وفرسان البيان فخارت قواهم، و اندقت أعناقهم، وخرست ألسنتهم، ولم يستطيعوا الإتيان بأقصر سورةٍ من مثله، مع توفر قدرتهم البيانيّة، وطول تحديه لهم، ونزوله في هذا التَّحدِّي من القرآن كُلّه إلى سورةٍ واحدةٍ من مثله، وقد سلَّموا بإعجازه وعجزهم، وأعلن الله حكمه القاطع في شأن هذا الكتاب المعجز في قوله:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1]

وفي هذا البحث أُحاول– على ضعفي– أنّ أُجلّي بعض أسرار هذا

([1])سورة الإسراء/٨٨.

الإعجاز في آياتٍ من سورة "الفُرْقان" أوردت وَصْف (عباد الرَّحمن)؛ وذلك من خلال تدبُّر دقائق النَّظم الجليل وخصائصه التّعبيرية؛ لبيان بعضٍ من قسمات الإعجاز، و دور كلّ لفظة من ألفاظه في تأدية الغرض المَسُوقة له في ضوء السّياق والمقام.

وإذا كان الهدف من هذا البحث هو الكشف عن بعض سمات الإعجاز القرآنيّ، في وصف (عباد الرّحمن)- وتلك غايةٌ ساميةٌ- و ذلك بالتّأكيد ينعكس أثره على الدَّرس البلاغيّ؛ لأنَّه يُثريه ويبعث فيه الحياة، من خلال مَدِّه بأرقى ما تكون البلاغة فيه، إنّها البلاغة المعجزة، التي سجد لسلطانها أرباب الفصاحة والبلاغة!.

فإنَّ له هدفًا آخر لا يقلُّ سموّاً وأهميةً عن الهدف الأوّل، وهو تجلية صفات (عباد الرّحمن) التي مدحهم الحقُّ (سبحانه وتعالى) بها؛ ليكون ذلك إغراءً بالاتّصاف بها، وبذلك يكون البحثُ قد حقّق هدفه من الوقوف مع أمرين لا ينفكان في كتاب الله، هما: المعجزة والمنهج.

وقد جاء هذا البحثُ في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، ومحورين، وخاتمةٍ، وفهرسٍ للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات.

- المقدمة: بيَّنتُ فيها منزلة الموضوع من الدّراسات البلاغية والقرآنيِّة، وخطته ومنهجه.

- التّمهيد : ذكرتُ فيه نصّ الآيات التي جاء فيها وصف (عباد الرّحمن) ، كما ألقيت الضوء على المقصود من (عباد الرّحمن) وعلى أنواع أوصافهم وعددها في هذه الآيات.

- المحور الأوّل: حلّلتُ فيه آيات وصف (عباد الرّحمن) تحليلاً

بلاغيًا يُفضي بأسرار التّعبير القرآني، ويشي بسمات الإعجاز فيها.

- المحور الثّاني: تحدّثتُ فيه عن بعض ملامح الإعجاز القرآني في عرض هذه الأوصاف.

- الخاتمة: تضمّنت أبرز النتائج التي أسفر عنها البحثُ.

على أنّ المنهج في هذه الدّراسة، هو المنهج التّحليليّ الاستنباطي المقارن؛ ذلك لأنهّا قامت على تحليل كلّ مُكوّنات هذا النّص المبارك؛ لمحاولة استنباط ما يفيض به من أسرار تعبيرية ودقائق أسلوبية، تعاونت على وصف (عباد الرَّحمن)، وصفًا يمُتع النُّفوس بجماله ، ويشرح الصُّدور بعمق الإيمان فيه، ويجذب العقول إليه لدقّته، ويأسر الألباب نحو طريق أصحابه لسموّه ورفعته، ولعلّ كلَّ هذا- وأكثر- كان مقصدًا للنّظم الكريم.

كما وازنت الدِّراسةُ بين أقوال العلماء في فهمهم للنّظم الجليل، وأخذت منها ما تراه مناسبًا للسِّياق والمقام والغرض المسوق له الكلام، معتمدةً على أصولٍ مُعْتَرَفٍ بها عند عدول الأمة في فهم كتاب الله المجيد.

ولئن وُفِّقتُ فيما إليه قصدتُ، فذلك من فضل الله عليّ وعلى النّاس، وإن كانت الأُخرى فذلك من ضعفي وكثرة ذنوبي، وحسبي أنّي تعلقت بكتاب الله(عزّ وجلّ) في عليائه، وأرجو من الله أن يجزيني خيرًا على ما أحسنتُ، وأن يعفوَ عنّي فيما قصرتُ أو أخطأتُ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا

وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ﴾ [1]

وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا آمين

القُنْفُذَة – مكة المكرمة- في يوم السَّبت السّابع من جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ الموافق ٢٠١٢/٤/٢٨م.

وكتبه

العبد الفقير إلى عفو ربِّه

سعيد إسماعيل الهلالي

S_alhelale@hotmail.com

(١) سورة البقرة/٢٨٦.

التّمهيد:

– ١ –

آيات وصف (عباد الرّحمن)

في سورة الفُرْقان

جاءت آياتُ وصف (عباد الرّحمن) في خاتمة سورة "الفُرْقان" المكوَّنة من سبعٍ وسبعين آيةً، بدأتْ من الآية الثّالثة والسّتين، واستمرت إلى الآية قبل الأخيرة من السُّورة المباركة، ومجملها أربع عشرة آية، وهذا نَصُّها:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً ۞ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ۞ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ۞ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ۞ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ يَلَقَ أَثَاماً ۞ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً ۞ إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً ۞ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ۞ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ۞ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ

أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ۞ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ۞ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً ﴾[1]

وسورة الفُرْقان كلُّها مكيّة في قول الجمهور، وقال ابن عباس وقتادة : إلاّ ثلاث آيات نزلت بالمدينة وهي قوله(تعالى):﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهَا آخَرَ ﴾إلى قوله:﴿ وكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾الآيات: (٦٨،٦٩،٧٠) [2]، وهذه الآيات الثّلاث من آيات وصف (عباد الرّحمن)، وبناءً عليه فإنّ آيات وصف (عباد الرّحمن)، منها ما هو مدنيٌّ،- وهو الآيات المحدّدة- ومنها ما هو مكّي- وهو بقيتها- ، وقد يُوحي لنا ذلك بأنّ هذه الأوصاف ليست مرتبطةً بمدّة ولا بعهد ، إنمّا هي ثابتةٌ لا تتغيَّر من تاريخ نزولها إلى يوم القيامة، ولو أنّها كانت مكيّةً أو مدنيّةً لرُبَّما ظُنّ ارتباطها بهذا العهد دون ذاك، أو

---

(١) سورة الفُرْقان من الآية ٦٣إلى ٧٦.

(٢) يُرَاجع: تفسير القُرْطبي تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيس، (دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط ثانية ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م) ج١٣ص١، وتفسير البحر المحيط لأبي حيّان، تحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود والشّيخ علي محمد معوض وآخرين(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م)ج٦ص٤٣٩. وتفسير أبي السُّعود(دار إحياء التّراث العربي، بيروت) ج٦ص٢٠٠.وتفسير التّحرير والتّنوير للطّاهر بن عاشور (الدّار التّونسية، تونس ١٩٨٤م) ج١٨ ص٣١٣ وتفسير السّمرقندي، تحقيق د محمود مطرجي (ط دار الفكر) ج٢ص ٥٤٦،ومصاعد النّظر للإشراف على مقاصد السُّور للبقاعي تحقيق الدُّكتور عبد السّميع محمد أحمد حسنين (مكتبة المعارف، الرياض، ط أولى ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م)ج٢ص٣١٦.

تغيُّرها في العهد المدنيّ عن المكيّ، ولكنّ نزول أغلبها بمكة وبقيتها بالمدينة يُفهم منه أنّ صفات (عباد الرّحمن) قد أراد الله لها ألا تتبدّل وألا تتغيّر من أول قطرة من قطرات الوحي إلى آخر قطرة؛ فهي ثابتةٌ على طول نزول الوحي المبارك، قد شَرُف بنزولها العهدان: المكيّ والمدنيّ، والله أعلم بأسرار كتابه.

– ٢ –

بين يَدَيْ (عِبَاد الرَّحمَن) وأَوْصَافهم:

المراد بعباد الرَّحمن الموصوفين في تلك الآيات، إمّا أَصحابُ رَسُول الله (ﷺ)، وإمَّا جميعُ المؤمنين المتَّصفين بمضمون تلك الصِّفات، وإذا أُريد بهم أصحابُ النّبي(ﷺ)، تكون الصِّلات الثَّمَاني الَّتِي وُصِفُوا بها في هذه الآيات حكايةً لأَوصافهم الَّتي اخْتُصُّوا بها؛ وَإِذْ قد أُجْرِيَتْ عليهم تلك الصِّفاتُ في مقام الثَّناء والوعد بجزاء الجنَّة، عُلِم أَنَّ من اتَّصَفَ بتلك الصِّفات مَوعودٌ بمِثْل ذلك الجزاء، وقد شَرَّفهم اللَّهُ(عزّ وجلّ) بأَنْ جعل عُنْوانَهم عبادَه، واختارَ لهم من الإضافة إلى اسمه اسْمَ الرَّحمن؛ لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الَّذين قيل لهم: "اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمنُ"[1]

وإذا كان المرادُ من (عِباد الرَّحمن) جميعَ المؤمنين المُتَّصفِينَ بمضمون تلك الصِّلات، كانت تلك الموصولاتُ وصلاتُها نُعُوتًا لـــ (عباد الرَّحمن) على العموم، وفي الإطناب بصفاتهم الطَّيِّبة تعريضٌ بأَنَّ الَّذين

([1])سورة الفُرْقان/٦٠.

أَبَوا السُّجُود للرّحمن، وَزَادَهُمْ نُفُورًا، هم على الضِّدِّ من تلك المحَامدِ، تَعريضًا تُشعرُ به إضافةُ عباد إلى الرَّحمن. (١)

وقد وصف الله (عباد الرَّحمن) في تلك الآيات (باسم الموصول وصلته) ثماني مَرَّات، هي قوله (تعالى):

١-"الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً"

٢-"وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً"

٣-"وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً۞ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً"

٤-"وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً"

٥- "وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً۞ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً۞ إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً"

٦-"وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً "

٧-"وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً"

٨-"وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً "

---

(١) التّحرير والتّنوير(بتصرُّف) ج١٩ص٦٧.

وأمّا قوله (تعالى) ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً۞ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾، فهو إمَّا أن يكون خبراً لعباد الرّحمن الموصوفين بتلك الصّفات، وإمّا أن يكون استئنافاً بيانيًّا لبيان كَوْنِهم أَحْرِيَاءَ بما بعد اسم الإشارة. [1]

وبالنّظر في جُمَل الصّلة التي وصف الله بها (عباد الرّحمن) في هذه الآيات، نجد أنّ بعضها تضمَّن صفةً واحدةً، وبعضها تضمّن أكثر من صفة عُطِف بعضها على بعض في جملة الصّلة، ومن ثمّ تعدّدت أقوال المفسرين في عدد صفات (عباد الرّحمن) في تلك الآيات؛ لأنّ بعضهم عدّ عدّة أوصاف عُطِف بينها صفةً واحدةً، وبعضهم فَصَل بين هذه الصّفات وعدّها عِدّة صفات.

فالفخر الرّازي(ت٦٠٤هـ) عدّ الصّفات تسعًا، مضيفًا إلى الوصف باسم الموصول وصلته صفةً تاسعةً – وهي الحِلْم –وقد أخذها من قوله (تعالى):"وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا"[2]

و القُرْطبي(ت٦٧١هـ) عدّها إحدى عشرة صفة؛ فقال:"وما تخلّل بين المبتدأ وخبره أوصافهم من التحلّي والتخلّي، وهي إحدى عشرة: التّواضع، والحِلْم، والتّهجد، والخوف، وترك الإسراف والإقتار، والنزاهة عن الشّرك، و الزّنا، والقتل، والتّوبة وتجنُّب الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول المواعظ، والابتهال إلى الله. [3]

([1]) البحر المحيط ج٦ ص٤٦٩.

([2]) التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرّازي(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٤٢١هـ=٢٠٠٠م)ج٢٤ص٩٣.

([3])تفسير القُرْطبي ج١٣ص٨٣.

فقد عدّ التنزُّه من الشِّرك، والزِّنا، والقتل، صفةً واحدةً، وأضاف التّوبة، وسمّى الاعتدال في الإنفاق: ترك الإسراف والإقتار، والتنزُّه من شهادة الزّور: تجنُّب الكذب، والإعراض عن اللّغو: العفو عن المسيء، والإقبال على الله: قبول المواعظ.

و تبعه الطّاهر بن عاشور(ت١٣٩٣هـ) فقال:"وتلك مجموعُ إِحْدَى عَشْرَةَ خَصْلَةً وهي: "التَّواضُعُ، والحِلْمُ، وَالتَّهَجُّدُ، والخوْفُ، وترْكُ الإسرافِ، وترْكُ الإقْتارِ، والتَّنَزُّهُ عن الشِّرْكِ، وتَرْكُ الزِّنَا، وترْكُ قَتْلِ النَّفْسِ، والتَّوْبةُ، وترْكُ الكذبِ، والعَفوُ عن المُسِيءِ، وقَبُولُ دعوةِ الحقِّ، وإظهارُ الاحتيَاجِ إلى اللَّهِ بالدُّعاءِ". [1] ، فقد عدّ (التّنزّه عن الشّرك، وترك الزّنا، وترك قتل النّفس) صفة واحدة، كما أنّ (ترك الإسراف وترك الإقتار) صفة واحدة.

وعدّها أبو حيّان عشراً(ت٧٤٥هـ)[2]، أمّا أبو السُّعود(٩٥١هـ) فقد جمع بين تلك الأقوال؛ فقال:" وَصَفَ (عباد الرَّحمن) بما فصّل في حين صلة الموصولات الثّمانية من حيث اتصافهم به"[3]؛ فجعل أوصافهم كلّ ما تضمّنته جمل الصّلة في الموصولات الثّمانية.

وما صنعه أبو السُّعود في حصر أوصاف (عباد الرَّحمن) جيّد؛ لأنّه جعل الأساس في الأوصاف أسماء الموصول وجمل الصّلة، وفرّع منه وصفهم بكلّ ما اشتملت عليه هذه الجمل، وهذا ما أميل إليه وسوف أسلكه في عرض تلك الصّفات وتحليلها للوقوف على بلاغة

([1]) التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٨٤.

([2]) البحر المحيط ج٦ص٤٧٤.

([3]) تفسير أبي السُّعود ج٦ص٢٣١.

التّعبير فيها.

على أنّ من عدّها تسعًا أو عشرًا فإنّه لم يُلْغِ شيئًا من أوصافهم، وإنمّا جعل التّنزُّه عن الشِّرك والزّنا وقتل النَّفس صفةً واحدةً، بينما عدّها غيره ثلاثًا وهكذا.

وبالتّدقيق في هذه الصّفات يتبيّن لنا أنّها ليست نوعًا واحدًا، وإنمّا هي أنواعٌ، بناءً على اعتباراتٍ مختلفة، فباعتبارٍ هي صفات تخلية وتحلية- كما ذكر القرطبي[1]- ، وباعتبار ثان هي- كما ذكر الشّيخ الشّعراوي[2]-: إمّا صفات لعباد الرّحمن في ذواتهم مثل:﴿ يمشون على الأرض هونًا﴾، وإمّا صفات لهم مع مجتمعهم نحو:﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا﴾، وإمّا صفات لهم مع ربّهم نحو: ﴿ والذين يبيتون لربّهم سجدًا وقيامًا﴾، وباعتبارٍ ثالث هي : إمّا اعتقاد، وإمّا أقوال، وإمّا أفعال.

وذهب الطّاهر بن عاشور إلى أنّ هذه الصّفات أربعةُ أقسامٍ؛ فقال:"واعلم أَنَّ هذه الصِّلاتِ الَّتي أُجْرِيَتْ على "عباد الرَّحمن" جاءت على أَربعةِ أَقسامٍ:

١-قسم هو من التّحلّي بالكمَالات الدّينيّة، وهي التي ابتُدِئَ بها من قوله (تعالى):﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً... إلى قوله: سَلاماً﴾[الفُرْقان: ٦٣] .

٢-قسم هو من التَّخَلِّي عن ضلالات أهل الشِّرك، وهو الَّذي من

---

(١) تفسيرالقُرْطبي ج١٣ص٨٣.

(٢) تفسير الشّعراوي(ط أخبار اليوم) ج١٩ص٢٨٨٩.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ...﴾ [الفُرْقان: ٦٨] .

٣-وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام، وهو قوله:﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِياماً ﴾[الفُرْقان: ٦٤] ، وقوله:﴿ وَالَّذِينَ إِذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ [الفُرْقان: ٦٧] الآية، وقوله:﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ إلى قوله:﴿ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ إلخ [الفُرْقان: ٦٨- ٧٢].

٤-وقسم هو من تَطَلُّب الزِّيادة من صلاح الحال في هذه الحياة، وهو قوله:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا إِلَى قَوْلِهِ: لِلمُتَّقِينَ إِماماً﴾ [الفُرْقان: ٧٤]" .[1]

وهذا التّقسيم- على ما فيه من الدّقة - يعود في الحقيقة إلى ما ذكره القُرْطبي(رحمه الله) من التّحلية والتّخلية، كما أنّ بعضه يمكن أن يُردّ إلى بعض، وذلك كما في القسم الثّالث؛ فقوله (تعالى): ﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ﴾ إلى قوله: ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴾ إلخ يمكن أن يندرج في القسم الثّاني؛ لأنّ هذه الضّلالات من ضلالات أهل الكفر.

يُضاف إلى ذلك أنّ هذا التّقسيم يرتِّب الصّفات والآيات ترتيبًا يخالف التّرتيب المصحفي؛ ممّا يُؤذن بضياع كثير من الأغراض والأسرار؛ ولذا فلن أسير عليه في عرض الصّفات وتحليلها، وإنّما سألتزم بالتَّرتيب المصحفي للآيات، والله الموفق، ومنه العون، وعليه التّوكل، و به أستعيذ من الزَّلل وسوء الفَهْم.

([1]) التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٦٧.

المحور الأوّل:

مِنْ أَسرارِ التّعبيرِ القرآنيّ في وَصْفِ (عِبادِ الرّحَمنِ)

قوله (تعالى):"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ":

افتتح الحقُّ (جلّ وعلا) هذه الأوصاف بذكر الموصوفين بها من عباده المؤمنين فقال "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ"، وهو"كلام مستأنفٌ، مسوقٌ لبيان أوصاف خُلَّص عباد الرّحمن، وأحوالهم الدُّنيويّة والأُخرويّة، بعد بيان حال النّافرين عن عبادته والسُّجود له"[1]

وقوله (سبحانه)"وعِبَادُ الرّحمنِ" مبتدأٌ عند جميع أهل العلم، خبره إمّا الاسم الموصول"الذين يمشون" وما عطف عليه، وإمّا قوله في آخر السُّورة"أولئك..."، والاسم الموصول وما عطف عليه صفةٌ، وجعل الاسم الموصول وما عطف عليه خبراً عن "عباد الرّحمن" أوفق بسياق مدحهم وأليق؛ لأنّ الجملة المُصَدَّرة باسم الإشارة(أولئك) ستكون حينئذ استئنافًا بيانيًّا؛ لبيان عاقبة هؤلاء المُخْبَرِ عنهم بتلك الأخبار المتناهية في المدح؛ ولذا فقد فُصِلَتْ عمّا قَبْلَها؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ إذ هي جوابٌ لسؤال أثارته الجُمَل السَّابقة عن عاقبة ومآل "عباد الرّحمن"؛ فكأنّ سائلًا بعد الإخبار عن (عباد الرّحمن) بهذه الأخبار سأل عن عاقبتهم، فجاء قوله:"أولئك يُجزون الغرفة بما صبروا..." جوابًا لهذا السُّؤال؛ وقد فُصِل عمّا قبله كما يُفْصَل الجوابُ عن السُّؤال.

([1]) تفسير أبي السُّعود ج ٦ص ٢٢٨.

وفي كلام علمائنا ما يشهد لما ما مِلْتُ إليه ، فقد قال أبو حيّان :"والظّاهر أنّ " وَعِبَادُ " مبتدأ و " الَّذِينَ يَمْشُونَ " الخبر . وقيل : أولئك الخبر و " الَّذِينَ " صفة[1]، فقوله عن الأوّل "والظّاهر" وعن الثّاني "وقيل"، يُوحي بتأييد الأوّل وتمريض الثّاني؛ لأنّ "قيل"- كما قيل- صيغة تمريض.

ويقول ابن الجوزي:"وهو-أي قوله "عبادُ الرّحمن"- على كُلّ حالٍ مبتدأ، وفي خبره قولان: الأوّل أنّه ما في آخر السُّورة الكريمة من الجملة المصدّرة باسم الإشارة، والثّاني -وهو الأقرب- أنّه قوله (تعالى) (الذين يمشون على الأرض هونًا"[2]، وكلام البقاعي صريح في ترجيح الأوّل،قال " والأحسن أن يجعل هذا-يقصد اسم الموصول- خبر " العباد " ، ويكون"أولئك يجزون الغرفة" [الفُرْقان : ٧٥] استئنافاً متشوَّفاً إليه تشوّف المستنتج إلى النّتيجة. [3]

وقوله (عزّ وجلّ): "وَعِبادُ الرَّحْمنِ"، المقصود به أفاضلُ العباد وصفوتهم، لأنّ هذه الإضافة تُوحي بالتّفضيل، وإلا فالخلق كلُّهم عبادُ اللّه، وقد عبّر عنهم بقوله"عباد"، وهي إمَّا جمع عَبْد أو عابد، وعلى الأوّل فهي من العبوديّة، وعلى الثّاني فهي من العبادة، ويُفَرّق بينهما بأنّ العبادة: هي أن يفعل العبدُ ما يرضاه الرّبُ، و العبوديّة: هي أن يرضى العبدُ ما يفعله الرَّبُ[4] وقال الرّاغب: "العبوديّة إظهار التّذلّل،

---

(1) البحر المحيط ج٦ ص٤٦٩.

(2) زاد المسير ج٦ص١٠١.

(3) نظم الدُّرر ج ١٣ص ٤٢١.

(4)يُرَاجع: البحر المحيط ج٦ ص٤٦٨.

والعبادة أبلغ منها؛ لأنّها غاية التّذلُّل ولا يستحقُّها إلا من له غاية الأفضال وهو الله تعالى"، وذكر الرَّاغب في التّفريق بينهما-أيضًا- أنّ "جمع العبد الذي هو مُسْتَرَق (عبيد) وقيل (عُبُدًا)، وجمع العبد الذي هو العابد (عباد)، فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعمّ من العباد "[1]

وأضاف الألوسي(ت١٢٧٠هـ) أنّ بعضهم فرّق بينهما "بأنّ العبادة: فعل المأمورات وترك المنهيات، رجاء الثّواب والنّجاة من العقاب بذلك، والعبوديّة: فعل المأمورات وترك المنهيات لا لما ذكر بل لمجرد إحسان الله -تعالى- عليه " [2]، وذهب ابن عطية(ت٥٤٦هـ) إلى أنّ العباد والعبيد بمعنى إلا أن العباد يستعمل في مواضع التّنويه[3]

وسواء أكان (عباد) جمع عبد أم عابد، فإنّ النّظم الجليل قد عبّر عن هذا الصنف من خُلّص عباده بوصف العبوديّة؛ لأنّ العبوديّة لله حيثيةُ تكريمٍ، وعِلّةُ ارتقاءٍ، وذلك كقوله(سبحانه) عن رسوله (ﷺ) ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾[4]، فقد عبّر عنه بعنوان العبوديّة تشريفًا له وتعظيمًا ، كذلك قال في وصف الملائكة :﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾[5]؛ وذلك لمدحهم والثّناء عليهم بهذا الوصف.

وذكر الفخر الرازي أنّ الذي يدلّ على أنّ هذه الصّفة من أشرف

([1]) مفردات غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني ص٣١٩.

([2]) روح المعاني ج١٩ ص٤٣.

([3]) المحرّر الوجيز ج٤ ص٢١٨.

([4])سورة الإسراء:١.

([5])سورة الأنبياء: ٢٦.

صفات المخلوقات أنّه سبحانه خصّ المشتغلين بالعبوديّة بها[1]

على أنّ وصف العبوديّة مكروهٌ عند البَشَر، وذلك لأنّ السّيد يأخذ خيْرَ عبده، لكنَّه لله- تعالى- عزٌّ وشرفٌ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده، ومن ثمّ فهي عبوديّة سيادةٍ، لا عبوديّة قهرٍ، عبوديّة عزٍّ وشرفٍ، لا عبوديّة ذُلٍ ومهانةٍ، عبوديّة لرحمنٍ، لا عبوديّة لجبارٍ. [2]

و قد عبّر عنهم بعنوان العبوديّة وقدّمها على سائر الصّفات والأخلاق التي يتّصفون بها؛ لأنّها تحوي جميع صفاتهم وأخلاقهم، أضف إلى ذلك أنّ جميع الصّفات الخُلُقيّة العالية تنشأ عن العبوديّة؛ فهم عندما يتواضعون في مشيهم، لا يكون ذلك ضعفًا ولا تملُّقًا لأحد، بل نتيجة لعبوديتهم للحقّ وطاعتهم له، وتخلُّقهم بالأخلاق الإلهية العالية، وقُلْ مثلَ ذلك في حلمهم وبقية الصّفات.

وإذا كان التّعبير عنهم بوصف العبوديّة يتضمَّن مدحهم وتشريفهم بهذا الوصف في ذاته، فإنّه يوحي -على جهة الاستتباع- المدح بصفتيْ التّوحيد والإخلاص لله (جلّ وعلا)؛ لأنّ العبوديّة الكاملة لله (تعالى) تعني أنّ الإنسان لا يرى شيئًا في الكون مستقلًا عنه (تعالى)؛ بل يرى الله في كُلّ شيء، فإذا احتاج طلب حاجته من الله (تعالى)، وإذا قُضِيت حاجته لم يشكر إلا الله؛ لأنّه يردُّ كُلّ أسباب قضاء حاجته إليه سبحانه، وكأنّ النّظم الجليل من خلال التّعبير بهذا العنوان قبل أيّ وصف لهم يُقرِّر أنّ عبوديَّتهم، وتوحيدهم، وإخلاصهم أمورٌ مفروغٌ منها.

---

(1) التّفسير الكبيرج٢٤ص٩٣.

(2)يُرَاجع: تفسير الشّعراوي ج١٩ ص ٢٨٨٩.

والتّعبير عن هؤلاء الموصوفين بوصف العبودية مضافًا إلى الرّحمن، يَفِيضُ بالرِّفعة والتّكريم والتّفضيل، و العزّ والشّرف، والمدح والثّناء، بحيث لو لم يُوصَفُوا بتلك الأوصاف التّالية له في النّظم الكريم لكفاهم ذلك الوصف(عباد الرّحمن) ، فهو يتدفّق بشِقَّيْه مدحًا وثناءً وعزًّا وشرفًا؛لأنّ الله (سبحانه) "قد شَرَّفَهم بأَنْ جعل عُنْوانهم عِبَادَه، واختار لهم مِنَ الإضافة إلى اسْمِهِ اسْمَ الرَّحْمَنِ لوُقُوع ذِكْرِهم بعد ذِكْر الفريقِ الَّذين قِيلَ لَهُم: اسْجُدُوا لِلرَّحْمنِ. قالُوا: وَمَا الرَّحْمنُ "[1]

ومن ثمَّ يُلْمَحُ في هذا الاسم تعريضٌ بالَّذينَ أَبَوا السُّجُود للرّحمن وَزَادَهُمْ نُفُورًا؛ لأنّهم على الضِّدِّ من تلك المحامد، وهذا التّعريض تُشْعِرُ به إضافةُ عِبادٍ إلى الرَّحمن. [2]

كما أنّ إضافةَ عبادٍ إلى الرّحمن دون غيره من أسمائه و ضمائره(عزّ وجلّ)، تُوحي بالبشارة لهؤلاء الموصوفين بأنهّم محل رحمته (تعالى)، وهذا ما أشار إليه البقاعي (رحمه الله) في قوله:" فأضافهم إليه، رفعةً لهم، وإنْ كان كلُّ الخلق عباده، وأضافهم إلى وصف الرّحمة الأبلغ- الذي أنكره أولئك- تبشيراً لهم ؛ ثم وصفهم بضدّ ما وصف به المتكبرين عن السّجود ، إشارة إلى أنّهم تخلقوا من هذه الصّفة التي أضيفوا إليها بأمرٍ كبيرٍ ، فقال : "الذين يمشون"[3]

كذلك في هذه الإضافة إشارة إلى أنّ العبد الذي يريد أن يكون من (عباد الرّحمن) لابدّ أن يتّصف بالرّحمة، ومن ثمّ وصف الله (سبحانه)

([1])سورة الفُرْقان: ٦٠.

([2]) يُرَاجع: التّحرير والتّنوير ج١٩ص٦٧.

([3]) نظم الدُّرر ج١٣ ص ٤٢٠.

(عباد الرّحمن) بأنّهم يمشون على الأرض متواضعين، يترفَّقون بالنّاس ويرحمونهم.

وذهب جمعٌ من المفسرين- منهم ابن قتيبة(ت٢٧٦ هـ)، والسّمعاني(ت٤٨٩هـ)، والبغوي (ت٥١٠هـ)، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ)، والألوسي(١٢٧٠هـ)- إلى أنّ إضافة عباد إلى (الرّحمن) دون غيره من أسمائه (تعالى) وضمائره (عزّ وجلّ) لتخصيصهم برحمته أو لتفضيلهم على من عداهم؛ لكونهم مرحومين منعمًا عليهم كما يُفْهم من فحوى الإضافة إلى مشتق "[1]

وقد أراد السّمعاني(رحمه الله) أن يُبيّن معنى التّخصيص في إضافة عباد إلى الرّحمن في قوله تعالى: (وعباد الرّحمن) فقال:" فإنْ قال قائلٌ :كلُّ النّاس عبادُ الرّحمنِ ، مؤمنهم وكافرهم ؟ قلنا : إنّ هذا كما يقول القائل : ابني فلان ، ويخصُّ بذلك الواحد من بَنِيه ، وكذلك يقول : صديقي فلانٌ ، ويخصُّ بذلك الواحد من أصدقائه ، ومعناه : أن من يكون ابني ينبغي أن يكون كفلان ، ومن يكون صديقي ينبغي أن يكون كفلان"[2]

وكأنّه يريد أن يقول: إنّ هذه الإضافة في النّظم الجليل تُوحي بأنّ

([1]) يُرَاجع: تفسير البغوي تحقيق عبد الرّازق المهدي(دار إحياء التّراث العربي بيروت،ط أولى ١٤٢٠هـ) ج٣ ص٤٥٤، و تفسير السّمعاني تحقيق ياسر إبراهيم وغُنيم عبّاس (دار الوطن، الرّياض، السّعودية ١٤١٨هـ=١٩٩٨م) ج٤ص٢٩، وزاد المسير لابن الجوزي (المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ) ج ٦ ص١٠١ وروح المعاني ج١٩ص٤٣.

([2])تفسير السّمعاني ج٤ص٢٩.

من أراد أن يكون من عباد الرّحمن؛ فينبغي أن يكون مثلهم؛ لأنّهم أفاضل العباد الذين يعبدون الله حقّ عبادته.

ومعنى التّخصيص الذي لمحه علماؤنا من هذه الإضافة يُرشحه ويُؤكّده سياقُ السُّورة المباركة؛ ذلك لأنّ الآيات التي تحدّث فيها الحقُّ (جلّ وعلا) عن (عباد الرّحمن) وجزائهم، جاءت بعد الحديث عن الكافرين المعاندين الذين :"إِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً"[1]، وكأنّ الحق (سبحانه) يقول: و(عباد الرّحمن) هم الموصوفون بتلك الأوصاف، لا أولئك الكُفّار المعاندون النّافرون عن السُّجود له.

على أنّني وإن كنتُ أوافق علماءنا على وجود معنى التّخصيص، لكنّي اختلف معهم في مَنْبَعه؛ إذ ليس مصدره الوحيد الإضافة – أي إضافة عباد إلى الرّحمن–، وإنمّا مصدره –إلى جانب ما سبق– تعريف المسند(الخبر) بالموصوليّة في قوله (تعالى):" الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً..."إلخ المعطوفات، وهذا بناء على احتمال جعل اسم الموصول وما عطف عليه خبرًا للمبتدأ الذي هو(عباد الرّحمن)، وعلى الاحتمال الآخر الذي يجعل الخبر قوله:"أولئك يجزون.." يَفُوتُ معنى القصر.

فقد أفاد تعريف المسند بالموصولية قصر مدلول جملة الصّلة على المبتدأ(عباد الرّحمن) قصرًا حقيقيًا، كما أنّ إيثار تعريف المسند بالموصولية، يفيد اشتهار جملة الصّلة بين النّاس، فهي أمرٌ معروفٌ

([1])سورة الفُرْقان/٦٠.

بين النّاس جميعًا، يعرفونه ولا أحد يجهله، وهذه الميزة ينفرد بها التّعريف بالاسم الموصول.

ونظير هذه الآية في إفادة المسند القصر لتعريفه بالموصولية قوله (تعالى):﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ۞ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ۞ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1] وقوله (عزّ وجلّ):﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[2] ، فالمسند في هذه الآيات الكريمة مقصورٌ على المسند إليه قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا، وإيثار التّعريف بالموصولية أفاد انشغال الخلق بتلك الأمور المثارة في جملة الصّلة واشتهارها بينهم، ووصفهم بها، وتردُّدها على الأسماع.

ومثل هذه الآيات: قول المتّنبي:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إلى أَدَبِي ... وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

أَنَامُ مِلْءَ جِفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا ... وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَ يِخْتَصِمُ[3]

فقد أفاد تعريف المسند بالموصولية قصر مدلول الصّلة على

([1])سورة المؤمنون/٧٨-٨٠.

([2]) سورة الأنبياء/٣٣.

([3]) ديوان أبي الطيّب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمي بالتّبيان في شرح الدّيوان ضبط مصطفى السّقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي ج٣ص٣٦٧(دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان).

المتّنبي واشتهار جملة الصّلة. [1]

إذاً فمعنى التّخصيص نابعٌ من تعريف المسند و من الإضافة، وليس من الإضافة وحدها، والقصر بتعريف المسند قصر اصطلاحي، والتخصيص بالإضافة قد يفيد القصر لغويًا كما تقول:صاحب المنزل، وبذا يتآزر قصران اصطلاحي ولغوي، وهذا أقوى وآكد.

وقد ألمح الإمام القُرْطبي إلى القصر بتعريف المسند في عبارة مختصرة نقلها عن الأخفش قال فيها:"وكأنّه قال: وعباد الرّحمن هم الذين يمشون على الأرض، فحذف هم، كقولك: زيد الأمير، أي زيد هو الأمير. فـــ" الَّذينَ" خبر مبتدأ محذوف، قاله الأخفش". [2] فهذه الكلمات القليلة جمعت كُلَّ ما قلته؛ لأنّها وضَّحت معنى القصر و حدَّدت منبعه.

والمراد من (عباد الرّحمن) – كما أشرت سابقًا– إما أصحاب النّبي(صلوات الله عليه) وإما عباد الله المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصفات، وإلى هذا أميل؛ لأنّه أعمّ وأولى، أعمّ لأنّه يشمل الصّحابة–إذ يدخلون فيها دخولًا أوليًّا– وغيرهم، وأولى لأنّه يدعو صراحة إلى الاتصاف بتلك الأوصاف إلى أنْ يرث اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

([1]) علم المعاني للدُكتور بسيوني فيُود (مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع بالقاهرة، ط ثانية ١٤٢٥هـــ=٢٠٠٤م) ص١٥٤.

([2])تفسير القُرْطبي :ج ١٣ ص ٦٨.

أوصافُ عِبَادِ الرَّحْمَن:

الصّفتان: الأُولى، والثّانية:التّواضع، والحِلْم.

وأول ما يلقانا من وصف (عباد الرّحمن) قوله (تعالى):﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾.[1]،وهو الخبر الأوّل من جملة الأخبار الثّمانية التي أخبر الله بها عن (عباد الرّحمن) ووصفهم بها، وهو مكونٌ من الموصول وصلته وما عطف على هذه الصّلة؛ لأنّ جملة الشّرط"إذا خاطبهم الجاهلون..." داخلٌ في حيز الصّلة لأنّه معطوفٌ على"يمشون" وليس معطوفًا على الموصول، ثمّ إنّه مع أنّه معطوفٌ على الصّلة وداخل في حيزها دخل في تكوينه جملتان هما: الشّرط والجزاء، وهكذا تجد هذا الخبر قد دخل في تكوينه جملٌ ثلاثٌ لا محل لها من الإعراب.

وبالتّأمُّل في هذا القول المبارك يتّضح لنا أنّه قد تضمَّن وصف سيرتهم بالنّهار، في ذواتهم و مع مجتمعهم، وهذا الوصف في جملته كناية عن صفتين: الأُولى: التّواضع، والأخرى : الحلم [2]، ولأَجْلِ المنَاسَبةِ بين الصّفتين عُطِفَتْ الثّانية على الأُولى، ولَمْ يُكَرَّرِ اسْمُ المَوْصُولِ كَمَا كُرِّرَ فِي الصِّفَات بعْدهَا.

وممّا يَلْفت النَّظر أمران :الأوّل: العلاقة بين وصف الرّحمن وجملة الأوصاف والآخر:المجيء بهاتين الصّفتين متجاورتين في صدر

([1])سورة الفُرْقان/٦٣.

([2]) حاشية الشّهاب ج٦ص٤٣٥.

أوصاف (عباد الرّحمن).

ومن خلال محاولة تدبُّر الذّكر الحكيم، واستكناه أسراره وأنواره، والوقوف على بعض ملامح إعجازه، ندرك أنّ كُلّ الأوصاف التي وصف الله بها (عباد الرّحمن) في هذه الآيات، هي من مقتضيات وصف الرّحمن ومتطلباته؛ ولذا كان المجيء بوصف الرّحمن معها، كما أنّ مجيء صفتيْ التّواضع والحِلْم في مقدمة الأوصاف لشدّة مناسبتهما لوصف الرّحمن واقتضائه لهما، وذلك لأنّ الرّحمة تتجلّى أكثر ما تتجلى فيهما، ومن ثمّ جعلهما الله فاتحة الأوصاف وعنوانها. يُضاف إلى ذلك أنّ وصفهم بضدّ ما وصف به المتكبرين عن السّجود، يفيد التّعريض بهم ، ويشير إلى أن (عباد الرّحمن) تخلقوا من هذه الصّفة بأمرٍ كبيرٍ .

وقد آثر التّعبير القرآني المجيء بالصّفتين في إطار اسم الموصول- حيث وقعتا في جملة الصّلة- ليُوحي بشهرة (عباد الرّحمن) بهما بين النّاس، وهذا أنسب لمقام مدحهم والثّناء عليهم.

وقد أوحى بتواضعهم قوله (تعالى):" الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً"؛ لأنّه يعني أنّهم يمشون بتواضعٍ وخشوعٍ ، لا يضربون بأقدامهم تجبُّرًا ، ولا يخفقون بنعالهم أشراً وبطراً ، ولا يتبخترون لأجل الخيلاء ، ولا يعني ذلك أنهّم يمشون كالمرضى تصنعًا ورياءً، وإنمّا يمشون بعزّةٍ وأَنَفَةٍ وقوّةٍ، أسوةً بسيّد المتواضعين سيدنا رسول الله(ﷺ) ؛ فقد

"كان إذا مشى كأنمّا ينحطّ من صَبَبٍ "[1]، وكأنمّا الأرضُ تُطوى له؛ حتى قَالَ ابن عباس(رضي الله عنهما) في وصف مَشْيه : "كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) إِذَا مَشَى ، مَشَى مَشْيًا مُجْتَمِعًا يُعْرَفُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَشْيِ عَاجِزٍ وَلا كَسْلانَ "، وقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه):" مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "[2].

وإذا كان قوله (تعالى) "هونًا" قد أوحى بتواضع (عباد الرّحمن) وخشوعهم على سبيل الكناية، وهذا في مقابل التَّكبُّر والتَّجبُّر، فإنّه أوحى بالسَّكينة والوَقَار، وهما في مقابل الخِفَّة والسُّرعة، والرِّفق واللِّين وهما في مقابل الخشونة والغلظة، وقد أفاد هذا القول كُلّ هذه المعاني بلا تعارض ولا تزاحم؛ لأنّ الكناية قد يجمع فيها بين المعنيين: الحقيقي، والكنائي؛ ولذا فهذه الكلمة من الكلمات الثّريّة.

وفسّره الرّاغب بتذلُّل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، وجعله نظيرًا لقول النّبي(ﷺ) الذي رواه أبو هريرة(رضي الله عنه) "المُؤْمِنُ هَيِّنٌ لَيِّنٌ، تَخَالُهُ مِنَ اللِّينِ أَحْمَقَ "[3]، وعن الإمام أبي عبد الله (رضي الله تعالى عنه) أنّ الهون مشي الرَّجل بسجيته التي جُبِل عليها

([1])رواه الإمام أحمد في مسنده عن علي (رضي الله عنه)، المسند تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون (مؤسسة الرِّسالة ، ط أولى ١٤٢١هـ=٢٠٠١م) ج ٢ ص١٤٤، وصبب: أي طريق منحدر. اللِّسان، مادة:صبب.

([2]) شرح السُّنة للبغوي تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشّاويش(المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ثانية ١٤٠٣هـ =١٩٨٣م) ج١٢ص ٣٢٠.

([3]) شُعَب الإيمان للبيهقي تحقيق الدُّكتور عبد العلي عبد الحميد حامد(مكتبة الرُّشد بالرِّياض، ط أولى ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م) ج٦ص ٢٧٢، تحت رقم ٨١٢٧، و مفردات غريب القرآن للراغب مادة :هون.

لايتكلّف ولا يتبختر[1]

وقد اختلف المفسرون في تحديد المراد من المشي في قوله تعالى" يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً"؛ فذهب جمهور المفسرين إلى حمله على ظاهره، وهو الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة، وعليه يكون مَدْحًا لِمشْيَةٍ بِالأَرْجُلِ، وجوّز بعض المفسرين أن يكون قوله:"يمشون..." عبارة عن تصرُّفاتهم في معاشرة النّاس، فعُبّر عن ذلك بالمشي على الأرض، ومن هؤلاء الزجاج وابن عطية، وهو مرويٌّ عن زيد بن أسلم. [2]

وعلى قول الجمهور يكون التّعبير القرآني، كناية عن تواضعهم؛ إذ يمُدحهم بأنهّم يمشون على الأرض هوناً، "والمَشْيُ الهَوْنُ: هو الَّذي ليس فيه ضَرْبٌ بالأَقْدَامِ، وَخَفْقُ النِّعالِ؛ فهو مُخَالِفٌ لِمَشْيِ المُتَجَبِّرِينَ المُعْجَبِينَ بنُفُوسهم وقُوَّتهم. وهذا الهون ناشئ عن التَّوَاضُع للَّه(تعالى)، والتَّخَلُّقِ بآدابِ النَّفْسِ العاليةِ، وزَوَالِ بَطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ فكانت هذه المِشْيَةُ من خِلالِ الَّذين آمَنُوا على الضِّدِّ من مَشْيِ أهل الجاهليَّةِ.

والتَّخَلُّقُ بهذا الخُلُق مَظْهَرٌ من مظاهر التَّخَلُّق بالرَّحمةِ المُنَاسب لعباد الرحمن لأَنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَوْنُ يُناسِبُ مَاهِيَّتَها وفيه سلامَةٌ من صَدْمِ المارِّينَ".[3]

([1]) روح المعاني ج ١٩ص ٤٣.

([2]) التّسهيل لعلوم التّنزيل لمحمد بن أحمد الغرناطي الكلبي (دار الكتاب العربي بيروت لبنان ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م)ج٣ص٨١.

([3])التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٦٨.

و التّعبير بالمشي الهون عن تواضعهم ، أبلغ من التّعبير الحقيقي عنه؛ لأنّه بمثابة الدَّعوى مع دليلها؛ فكأنّه يقول:هم متواضعون؛ لأنَّهم يمشون على الأرض هونًا.

وتقييد المشي بكونه على الأرض، يُوحي بأنّهم في مشيهم الاختياري يكونون على هذه الصِّفة، وليس ذلك عند المشي الاستثنائي،كالمشي فِي الصُّعُدَاتِ أَوْ عَلَى الجَنَادِلِ، وأضاف البقاعي لهذا التّقييد سرًا آخر، هو التّذكير بما منه المبدأ، وما إليه المعاد؛ للحثّ على التّرقّي في معالي الأخلاق؛ فقال: "وقال : "على الأرض" تذكيراً بما هم منه وما يصيرون إليه ، وحثاً على السعي في معالي الأخلاق للتّرقي عنه"[1]

وهذا الملمح الذي ذكره البقاعي، ملمح جيّد؛ لأنّ التّذكير بما منه البداية، وما إليه المنتهى، يقي الإنسان من التكبُّر والتبختّر، وكثيرًا ما لجأ إليه القرآن الكريم في قضية البعث، نحو قوله (تعالى):﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾.[2] وقوله:﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ۞ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ۞ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ۞ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ۞ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[3].

وإيثار كلمة (على) على (في) للإشارة إلى استعلائهم على الأرض مع رفقهم وكونهم هينين ، ولم يقل:يمشون في الأرض كما قال (سبحانه):" هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا

([1]) نظم الدُّرر ج١٣ ص ٤٢٠.

([2]) سورة يس:٧٧.

([3])سورة الطَّارق:٥-٩.

مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ"[1] ؛ لأنّ المشي في سورة الملك طلبٌ للرّزق فهو بحث في الأرض واستخراج خيراتها[2]

وقوله تعالى: "هونًا": مصدر، ونصبه إمّا على أنّه نعتٌ لمصدر محذوف أي مشيًا هونًا، فهو منصوبٌ على النِّيابة عن المفعول المطلق المبين لنوعه، أو على أنّه حالٌ من فاعل (يمشون)، والمراد يمشون هينين ليني الجانب من غير فظاظة في تؤدة وسكينة ووقار وحُسْن سمت [3]

وفي وضع المصدر موضع الصّفة أو الحال مبالغة في وصف المشي بهذه الصفة، أو في اتصافهم بمدلوله حتى كانوا إياه، [4] ، ولا يخفى ما في ذلك أيضًا من التّأكيد لوصف المشي أو وصفهم بهذه الصّفة، كما لا يخفى أنّه على حمله على أنّه وصف للمشي، يكون هذا من قبيل المجاز العقلي ، الذي وصف فيه الشيء بوصف صاحبه؛ إذ الهون في الحقيقة ليس وصفًا للمشي، وإنمّا لصاحبه، وفي ذلك مبالغة في وصف (عباد الرّحمن) بالرّفق واللّين ما فيه، كما أنّ في المجاز العقلي خيالًا طريفًا؛ إذ خيل لنا أنّ المشي أصبح يتّصف بما يتّصف به صاحبه والله أعلم بأسرار كتابه.

وقد ذكر شيخنا الأستاذ الدّكتور محمد أبو موسى أنّ في هذه

([1])سورة الملك:١٥.

([2]) دلالات التّراكيب(مكتبة وهبة بالقاهرة ط ثانية ١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م) ص٣٦٨.

([3]) يُرَاجع: التّفسير الكبير ج ٢٤ص٩٣، والبحر المحيط ج٦ص٤٦٩ وتفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٢٨، وروح المعاني ج ١٩ص ٤٣.

([4]) نظم الدُّرر ج١٣ ص ٤٢٠.

الحال"هونًا" " من المعنى واللُّطف والرّفق مالا يُستطاع تحليله، لأنّه ليس المراد أنّهم يمشون على الأرض هينين لينين متواضعين فحسب، وإنّما المعنى متّسعٌ جدًا؛ لأنّ منه أنّهم يبثون في الأرض الرّفق والرّحمة والإنصاف، ولا يفعل ذلك إلا من كان شديد الأيد قادرًا على أن يُجاهد ويُجالد كُلّ ذي طغيان يبثّ الظّلم والفزع والغلظة والرَّهبة في حياة المسلمين، هم قومٌ موكلون في هذه الأرض ببثّ الرّحمة والعدل والخير، فحين تراه أخا سلاحٍ ممسكًا بعنان فرسه، كلما سمع هيعةً طار إليها، فهو من (عباد الرّحمن) "الذين يمشون على الأرض هونًا" لأنّه إنمّا يفزع لدفع الطُّغيان والباطل وكُلّ ما هو عدو للإنسان"[1]

وعلى الاحتمال الثّاني– الذي نُسب إلى زيد بن أسلم– يكون قوله:" يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ" استعارةً لسائر أمورهم وتصرفاتهم في الحياة، وعليه يكون هذا القول نظير قوله (تعالى): "وَإِذا تَوَلَّى سَعى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها "[2] ؛ فالسعي ليس المراد منه حقيقته، إنمّا هو استعارة لكُلّ التَّصرُّفات في الأرض، وقد اختار ابن عطية أنّ المراد من قوله (تعالى) :" يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هونًا" مدحهم بعدم الخشونة والفظاظة، في سائر أمورهم وتصرفاتهم، والمراد أنهّم يعيشون بين النّاس هيّنين في كُلّ أمورهم، وذكر المشي لما أنّه انتقال في الأرض، وهو يستدعي معاشرة النّاس ومخالطتهم، واللّين مطلوبٌ فيها غايةَ الطَّلب، ثم قال : وأما أن يكون المراد مدحهم بالمشي وحده هونًا

([1]) دلالات التّراكيب ص٣٦٨.

([2])سورة الْبَقَرَة: ٢٠٥.

فباطلٌ فكَمْ ماشٍ هونًا رويداً، وهو ذئب أطلس[1]، وقد كان (صلى الله تعالى عليه وسلم) يتكفّأ في مشيته، كأنمّا يمشي في صَبَبٍ وهو (عليه الصّلاة والسّلام) الصَّدرُ في هذه الآية "[2]

وأرى أنّ الخلاف بين مَنْ حمل المشي على حقيقته، ومَنْ جعله استعارة عن كُلّ التّصرفات، شكليٌّ؛ لأنّ من حمله على الحقيقة – وهم الجمهور– لم يُرد قصر الوصف باللّين والرّفق على المشي، دون أن يعمّ هذا سائر أمور (عباد الرّحمن)، وإنّما يقصد أن يُكَنّي بالمشي الموصوف باللّين عن تواضعهم في كُلّ تصرفاتهم ، وقد خصّ المشي لأنّ التّواضع والكبر أكثر ما يتجليان فيه، و قد أشارت إلى ذلك نصوص كثيرة من الذّكر الحكيم، منها قوله (تعالى): ﴿وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ، وَلَنْ تَبْلُغَ الجِبالَ طُولًا ﴾[3] ، وقوله:﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ﴾.[4]

فالتّواضع– وهو المعنى المكنى عنه– عام يتّصف به (عباد الرّحمن) في كُلّ تصرفاتهم، وقد صرّح بذلك العلّامة الأُلوسي في قوله " والظّاهر بقاء المشي على حقيقته، وأنّ المراد مدحهم بالسَّكينة

---

(1) قال صاحب اللّسان:"ذئب أَطْلَسُ: في لونه غُبْرةٌ إلى السّواد وكُلُّ ما كان على لونه فهو أَطْلَسُ والأُنثى طَلْساءُ، و الأَطْلَسُ: اللِّصُّ يشبَّه بالذِّئب ونقل عن الأزهري: أنّ الأَطْلَسَ من الذِّئاب : هو الَّذي تساقط شعره وهو أَخبث ما يكون " اللّسان مادة:طلس.

(2)يُراجع: المُحرَّر الوجيز ج٤ ص٢١٨، و روح المعاني ج١٩ص٤٤

(3)سورة الإسراء/٣٧.

(4)سورة لُقْمَان/١٨.

والوقار فيه من غير تعميم، نعم يلزم من كونهم يمشون كذلك أنهّم هيِّنون ليِّنون في سائر أمورهم بحكم العادة على ما قيل"[1]

و القول بأنّ المراد مدح مشيهم وحده بما ذُكر باطلٌ ؛ لأنّ الذّكر الحكيم كنى به عن تواضعهم في كل شئونهم ؛ ولذا فإنّي أميل إلى حمل قوله (تعالى):" يمشون على الأرض هونًا" على الكناية ؛ لأنّه أبلغ وذلك لأنّها قد يجمع فيها بين المعنيين:الحقيقي والكنائي، ويكون الأوّل دليلًا على الثّاني، ومن ثمّ يكون التّعبير الكنائي بمثابة الدَّعوى مع دليلها، وهذا يُضفي عليها مبالغة وبلاغة في مقامها.

يُزاد على ذلك أنّ من ذهب إلى القول بالاستعارة- أعني استعارة المشي لكلّ التَّصرُّفات والشُّئون- سينتهي إلى القول بالكناية؛ لأنّه سيبني على الاستعارةِ الكنايةَ عن تواضعهم، ولذا فالقول بالكناية فضلًا عمّا فيه من بلاغةٍ تُناسب السّياق والمقام، يُريح من كثرة التّأويلات.

وفي النّظم الجليل ملمحٌ آخر لا أريد أن أُضَيِّعَه، هو أنّه لم يذكر متعلق تواضع (عباد الرّحمن)؛ فلم يقل أهو للضعفاء أم للأقوياء؟ أهو للعامة أم للخاصة؟ أهو للرّجال أم للنّساء؟... إلخ وذلك يفيد العموم ويُوحي بأنّ التّواضع جبلةٌ فيهم.

وجاءت الصّفة الثّانية- وهي **صفة الحِلْم**- في قوله (تعالى):" وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً"؛ وبالتّأمل في هذا القول الكريم يتّضح لنا أنّ الحقَّ(جلّ وعلا)يكشف لنا عن حال (عباد الرّحمن) في المعاملة مع غيرهم، بعد الكشف عن حالهم في أنفسهم، وقد وصفهم

([1])روح المعاني ج١٩ص٤٤.

بأنّهم حلماء لا يستهلكون حياتهم وجهودهم في ثرثرة الكلام ولجاجات أهل الباطل، إن جُهِل عليهم لم يجهلوا، بل يردُّون على من تطاول عليهم بقولهم: "سلامًا". ودلالة هذا القول على صفة الحلم من قبيل الكناية ؛ فكأنّ النّظم الكريم يقول: هم حلماء، والدّليل على ذلك أنّهم إنْ جُهِل عليهم لم يجهلوا.

وهذا القول الكريم وإنْ دلّ على حلمهم فهو يُحقِّق لينهم ورفقهم الذي وصفهم به الحقُّ(عزّ وجلّ) في الجملة الأُولى عند تحقُّق ما يقتضي خلاف ذلك إذا خلي الإنسان وطبعه، وقد أشار إلى ذلك علماؤنا الأجلاء.[1] قال البقاعي:"ولم يقل:والّذين كبقية المعطوفات، لأنّ الخصلتين كشيءٍ واحدٍ من حيث رجوعهما إلى التّواضع[2] وقال الطَّاهر:"وقُرِن وَصفُهم بِالتَّواضع في سَمْتِهم وهو المشْيُ على الأَرض هَوْنًا، بوَصْفٍ آخَرَ يُنَاسِب التَّواضعَ وكراهيةَ التَّطَاوُلِ وهو مُتَارَكَةُ الَّذين يَجْهَلون عليهم في الخطاب بالأَذى وَالشَّتْم". [3]

وإذا كان قوله (تعالى):" وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً" يفيد مدحهم بصفة الحِلْم ابتداءً، فإنّه يتضمَّن مدحهم بصفة الصّبر استتباعًا؛ لأنّ فيما وُصِفوا به تحمُّلَ الإيذاء والصَّبرَ عليه، وهذا من ثراء التّعبير القرآني وامتلائه، ويُلْحَظ هذا التّدرج والتّرقّي في إثبات الصّفات؛ فقوله

([1])يُراجع: تفسير العزّ بن عبد السَّلام تحقيق الدُّكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي (دار ابن حزم بيروت ١٤١٦هـ= ١٩٩٦م) ج٢ص٤٣١ وتفسير أبي السُّعود ج٦ص ٢٢٨ ، روح المعاني ج١٩ص ٤٤.

([2])نظم الدُّرر ج ١٣ص ٤٢١.

([3])التَّحرير والتَنويرج١٩ص٦٨.

(تعالى):" يمشون على الأرض هونًا" يعني تواضعهم ولينهم وهذا يستلزم الرّفق بالآخرين وترك إيذائهم، وقوله :" وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً" يعني تحمل الإيذاء والصّبر عليه، فهذا مقامٌ يعلو المقام السّابق.

وقد آثر الحق(عزّ اسمه) التّعبير بـــ (إذا) دون " إنْ "؛ لأنّها – بحسب أصلها – لا تستعمل إلا في كلّ ما يقطع المتكلم بوقوعه في المستقبل، وجاء الفعل الماضي بعدها للإشعار بتحقّق الوقوع ؛ فدلّ بهما على تحقُّق السَّفه من الجاهلين والقطع بوقوعه، وهذا يناسب مقام المدح لعباد الرّحمن بأنّهم يتحمّلون ما يَرِدُ عليهم من أذى أهل الجهل والسّفه؛ فلا يجهلون مع مَنْ يجهل، ولا يُسَافِهُون أهلَ السّفه ، وفي هذا غاية المدح لهم؛ لأنّ الإغضاء عن السُّفهاء وترك المقابلة بالمثل مُستحسَنٌ في الأدب والمروءة ، وأسلم للعِرْض والدِّين.

والخطاب في قوله (سبحانه): "خاطبهم" عام يشمل أيّ خطاب – بجهل أو غيره – ، وكأنّه (سبحانه) من خلال إطلاق الخطاب يُعْلم أنّ أكثر قول الجاهل الجهل، وقد ذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها من الأوصاف ممَّا هو أَشَدُّ مَذَمَّةً منها مِثْلَ الكافرين، و الفاسقين وغيرهما ؛ وذلك لأَنَّ العبرة في المذمّة هو هذا الوصف وليس غيره، ومن ثمّ فقد يدخل تحته مِنْ كُلّ الطّوائف مَنْ يصدر منه خطابٌ يُشْعِرُ بأَنَّه يخالف العلم والحكمة ، وهو خطاب الجهالة وَالجَفْوَة.

وعليه فالمراد من "الجاهلون" ساعة نزول الوحي الكُفّار– إِذْ كانوا يَتَعَرَّضُون للمسلمين بالأَذى والشَّتْم فَعَلَّمَهم اللَّهُ مُتَارَكَةَ السُّفهاء–، ثُمَّ

هم بعد ذلك السُّفهاء [1]؛ لأنّ المراد من الجهل السّفه وسوء الأدب، فهو هُنَا ضِدُّ الحِلْمِ كقول عمرو بن كُلْثُوم:

أَلا لايَجْهَلَنْ أَحَدٌ عَلَينا فَنَجهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الجَاهِلِينَا[2]

وقد آثر النّظم الجليل التّعبير عنهم بهذا الوصف؛ لأنّه عامٌّ يستوعب كُلّ من يتّصف به من أيّ طائفة وفي أيّ عصر، وتلك ومضةٌ من ومضات الإعجاز القرآني؛ إذ يستمر هذا الوصف واقعًا إلى يوم القيامة، ولو أنّه جاء بوصف آخر لوقف عند حدوده.

كما يشعر هذا الوصف بالذّم والتّشنيع المُنفِّرَين من الاتصاف به والوقوع تحته، ومن اللّافت للنّظر أنّ الجهل أحياناً يطلق ويراد منه السَّفه والطيش –كما هنا–، و أحيانًا يراد منه الجهل الذي هو ضد العلم، لكن في مقام الذّم يستدعي أحد المعنيين الآخر، ويتعاونان على تقبيح المتصف به والتشنيع عليه .

يُضاف إلى ذلك أنّ في هذا الوصف تّعريضًا بالكافرين الذين كان معهم سياق السُّورة قبل آيات وصف (عباد الرّحمن)؛ فقد تعرَّضُوا للنّبي(ﷺ) والمسلمين بالأذى، ومن ثمّ فالنّظم الكريم وهو يمدح (عباد الرحمن) يُعرّض بهم، ليجعلهم في مقابلتهم حتى تكتمل الصورة؛ فهو يمدح هؤلاء وينال من هؤلاء.

---

(1) تفسير العزّ ج٢ص٤٣١.

(2) ديوان عمرو بن كلثوم جمع وتحقيق وشرح الدّكتور إميل بديع يعقوب(دار الكتاب العربي،ط ثانية ١٤١٦هـ=١٩٩٦م) ص ٧٨.

و ردّ (عباد الرّحمن) على سفه الجاهلين، قد حكاه الله عنهم في قوله:" قالوا سلامًا"، وهو على الضدّ منه تمامًا، هؤلاء يقطر خطابهم وكلامهم سفهًا وحمقًا وشرًّا، وهؤلاء يفيض ردُّهم بالسَّلام والسَّداد والخير، وكأنّ بين خطاب الجاهلين وردّ (عباد الرّحمن) طباقًا خفيًّا، هذا الطّباق من شأنه أن يجلِّي كُنْه الخطابين وما فيهما من حُسْنٍ و قُبْحٍ؛ لأنّ بالضّد –كما يقولون– تتميّز الأشياء.

كما أنّ ردّ (عباد الرّحمن) ردٌّ مؤكّدٌ؛ لأنّ (سلامًا) مصدرٌ منصوبٌ على المفعولية المطلقة، مؤكّدٌ لفعله المضمر معنى، ومبين لنوعه بالمنطوق، والتّقدير نتسلم تسلُّمًا منكم، فالجاهلون يتسفّهون عليهم، و(عباد الرّحمن) يردُّون عليهم بالسَّلام ردًّا مؤكَّدًا ومهذبًا، وهذا له دلالته في الكشف عن طبيعة (عباد الرّحمن)؛ إذ يخرج الردُّ الحسن منهم مؤكّدًا على الإساءة فيهم، وهذا يدل على طيب نفوسهم وتأصُّل الخير فيهم، لأنّ هذا الردّ نابعٌ من أعماق نفوسهم، وفي ذلك من المدح لهم ما فيه.

والسّلام في قوله (تعالى):"قالوا سلامًا"؛ يجوز أن يكون من التسلُّم وليس من التَّسليم، ويجوز أن يكون المراد به التّحية، وهو منصوب على أحد أمرين:إمّا على أنّه مصدرٌ لفعلٍ محذوفٍ أي قالوا سلمنا

سلامًا، وهذا على قول سيبويه[1]، أو على أنّه مفعولٌ به أي قالوا هذا اللّفظ" [2]

وذكر الطّاهر بن عاشور أنّه إذا أُريد به لفظ التّحية كان مستعملًا في لازم معناه وهو المتاركة؛ و عليه تكون الآيَة في معنى قوله (تعالى):" وَإِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقالُوا لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجاهِلِينَ". [3]

الصّفة الثّالثة:التّهجد لربهّم ليلاً.

وجاءت هذه الصّفة في الآية الثّانية من آيات وصف (عباد الرّحمن)، في قوله (تعالى):﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً ﴾[4]،و هذا هو الخبر الثّاني، وقد تضمّن وصفهم بصفة التّهجُّد ليلاً، وهو من عَطْف صِفَةٍ أُخْرَى عَلَى صِفَتَيْهم السَّابِقَتَيْن على حَدِّ قول الشَّاعر:

---

(١)الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون(دار الجيل،بيروت، ط أولى، بدون تاريخ)ج١ص٣٢٥.

(٢) يُراجع: تفسير العزّ ج٢ص٤٣١ ، وتفسير أبي السُّعود ج٦ص ٢٢٨ ، وروح المعاني ج١٩ص ٤٤، وفتح القدير للشَّوكاني (دار الفكر، بيروت، لبنان) ج ٤ص ٨٥..

(٣) سورة القصص/٥٥، ويُرَاجع:التّحرير والتّنويرج١٩ص٦٨وما بعدها.

(٤) سورة الفُرْقان:٦٤ .

إِلَى المَلِكِ القَرِمِ وَابْنِ الهُمَامِ وَلَيْثِ الكَتِيبَةِ فِي المُزْدَحَمِ[1]

وقد أفاد هذا العطف أنّهم بلغوا الكمال في كُلّ صفةٍ من هذه الصّفات، قال البقاعي:"وذكر هذه المعطوفات التي هي صفات بالواو، تنبيهًا على أنّ كُلّ واحدةٍ منها تستقلّ بالقصد لعظم خطرها، وكبر أثرها"[2]

و نظير هذه الآية قوله (تعالى):﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالقَانِتِينَ وَالمُنفِقِينَ وَالمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[3]، وقوله (تعالى)﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[4]، وهذا بخلاف ترك العطف في قوله (تعالى)﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾[5] وقوله (تعالى):﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ

([1])خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي تحقيق محمد نبيل طريفي وإميل بديع يعقوب(دار الكتب العلمية، بيروت،ط أولى ١٩٩٨م) ج١ص٤٢٩ .

([2])نظم الدُّرر ج١٣ص٤٢٢ .

(٣) سورة آل عمران:١٧ .

([4]) سورة الأحزاب:٣٥ .

([5]) سورة التّوبة:١١٢ .

عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ﴾[1]فقد أفاد أنّ هذه الصّفات مجتمعة في الموصوفين، وكأنّها صفةٌ واحدةٌ، فذكر الواو بين الصّفات يفيد أنّهم كاملون في كُلّ صفةٍ على حدة وتركها يفيد أنّها مجتمعةٌ فيهم[2] ،

والمراد من هذه الآية المباركة وصفهم بإحياء اللّيل بالصّلاة، وهذا أدخل في باب العبودية والضّراعة لله (تعالى)، والنّظم الجليل بهذا الوصف يكشف لنا عن حالهم في معاملتهم مع ربهم ليلاً، بعد أن كشف عن حالهم مع الخلق في النّهار، ولذا "كان الحسن (رحمه الله) إذا قرأ الآية السّابقة يقول:هذا وصف نهارهم، وإذا قرأ هذه قال:هذا وصف ليلهم".[3]

وفي الوصفين غاية المدح والثّناء على (عــباد الرّحمن)؛ لأنّ حالهم : هم أذلاء (متواضعون) لخلق الله في النّهار، يتحمّلون منهم الأذى، وأذلاء لله باللّيل، يُحيون ليلهم بالتذلُّل والتَّضرُّع له، وكأنّ في ذلك مقابلة خفيَّة؛ إذ هو يُصوِّر حالتين لهم: حالةً ظاهرةً بالنّهار مع الخلق، وحالةً خفيةً باللّيل مع الخالق، هذه المقابلة تُصوِّرهم تصويرًا دقيقًا و تكشف لنا عن حالتهم بوضوح، وتُضفي عليهم غاية المدح والثّناء؛ لأنّ نهارَهم خيرُ نهارٍ، وليلَهم خيرُ ليلٍ؛ فهم إذا أمسوا أو أدركوا اللّيل باتوا ساجدين قائمين لربهّم، يُصلّون بعضَ اللّيل أو أكثره، طائعين عابدين، وإذا أصبحوا أو أدركوا النّهار تصرّفُوا مع الخلق أحسن تصرُّف، فسيرتهم في اللّيل كسيرتهم في النّهار، وقد أشار

([1]) سورة آل عمران:١٧ .

([2])يُرَاجع:الكشّاف ج١ص٣٧١ .

([3])روح المعاني ج١٩ص٤٤ .

إلى هذه المقابلة سادتنا وعلماؤنا، قال الفخر الرّازي: "واعلم أنّه تعالى لما ذكر سيرتهم في النّهار من وجهين : أحدهما : ترك الإيذاء ، وهو المراد من قوله : "يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً" والآخر تحمّل التّأذي ، وهو المراد من قوله : "وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً" فكأنّه شرح سيرتهم مع الخلق في النّهار ، فبيّن في هذه الآيات سيرتهم في اللّيالي عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو كقوله : "تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع" " [1]

وقال البقاعي"ولما ذكر ما بينهم وبين الخلق من القول والفعل، وكان الغالب على ذلك أن يكون جلوة نهاراً، ذكر ما بينهم وبين خالقهم من ذلك خلوة ليلاً"[2]

وللوقوف على بعض ملامح الإعجاز في إثبات هذه الصّفة في الآية، يتبيّن لنا أنّ أول ما يلقانا من ذلك مجيئها في إطار اسم الموصول؛ وذلك لتأكيد أنّهم معروفون بها مشهورون فيها، وكأنّه يُوحي لنا بأنّ هذه الصّفة ليست صفة جديدة عليهم، ولا نادرة الوقوع منهم، بل هي عريقة فيهم مميّزة لهم، والتّعبير بقوله:" يبيتون" والبيتوتة:هي أن يُدركَك اللَّيلُ نمتَ أو لم تنم[3] ، وقد آثره التّعبير القرآني؛ لأنّ العبادة باللّيل أبعد عن الرِّياء، وأكثر خشوعًا وقُرْبةً إلى

([1])سورة السّجدة:١٦، التّفسيرُ الكبيرُ ج٢٤ ص٩٤ ، ويُرَاجع: البحر المحيط ج٦ ص ٤٧٠ ، والتّفسير المنير للدُّكتور وهبة الزحيلي (دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ثانية، ١٤١٨هـ) ج١٩ص١٠٢.

([2]) نظم الدُّرر ج١٣ ص٤٢٢ .

([3])اللّسان:مادة:بيت.

اللّه (تعالى)، وهذا أدخل في باب المدح والثّناء، كما أُلاحظ أنّ فيها إيحاءً بأنهّم- وإنْ جاءهم اللّيلُ- لا ينامون، ولكنَّهم دائمون على الاستغفار ملازمون له، ويُؤكّد هذا قوله (تعالى) عنهم في مقام آخر:﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ۞ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1]، فهم لا يهجعون إلا قليلاً.

وحمل اللّيل على حقيقته أدخل في باب المدح وأنسب لسياق الآيات، لأنّه يُوحي بأنّهم يُحيون ليلهم بالعبادة لله، بينما غيرهم في سُبَات عميقٍ، كما أنّ الآية السّابقة وصفت شأنهم بالنّهار ، وهذه تصف شأنهم باللّيل، ومن العلماء من حمله على أنّه كنايةٌ عن الخلوة مع الله (تعالى)، وقد اختار اللّيل لأنّه الوقت الذي لا تُقطع فيه الخلوة، حيث كُلّ النّاس في سباتٍ إلا من أحيا قلبَه حبُّ الله (تعالى)، لكنّي لا أميل إليه لأنّ الأول أبلغ في المدح وأنسّب للسياق، كما أنّه يستلزم الثّاني بخلاف هذا فإنّه لا يستلزم الأوّل.

وقوله" لربهِّم" متعلقٌ بما بعده، أي يبيتون سُجّدًا وقيامًا لربهّم، وقد قُدّم هذا المتعلق للاختصاص، حيث قصر النّظمُ الجليلُ بَيَاتَ (عبادِ الرّحمن) سُجّدًا وقيامًا على ربهّم، ونفاه عن كُلّ ما عداه، أي قصر الحال على صاحبها، فإذا كان اللّيل ظرفًا للرّاحة، و مسرحًا للّهو عند غيرهم، فهو عندهم محرابٌ للعبادة والتّبتُّل للحقِّ (جلّ وعلا)لا لغيره، وإذا انشغل النّاس بنسائهم وملذاتهم وسائر أمورهم، انشغلوا هم بالله وعبادته .

([1]) سورة الذَّاريات:١٧-١٨.

كما يتضمّن القصر بدلالته مدحهم بصفة أُخرى، هي الإخلاص لله (سبحانه وتعالى)، فهم يبيتون سُجَّدًا وقيامًا ابتغاء وجه الله الكريم، وليس لشيءٍ آخر، ويساعد على هذا المعنى حرف اللام في(لربهم).

وهذا التّقديم له مزيةٌ أخرى، هي رعاية الفاصلة والمحافظة على التّنغيم الصّوتي لما له من قوّةِ تأثيرٍ في النّفوس، وذلك عندما يقتضيه المقامُ ويتطلّبه المعنى، وهذا هو شأن الفواصل في النّظم الكريم، فهي تأتي للوفاء بحق المعنى ومحققةً لما يقتضيه المقامُ، وعندما يتطلّب المعنى ويقتضي المقام التخلّي عن تتابع الفواصل تجد الفاصلة قد قطعت، وما يقتضيه المعنى قد أُقرّ وأُثبت.

هذا، مع أنّ كثيرًا من البلاغيين لا يرتضي أن تكون رعاية الفاصلة علّةً بلاغيةً؛ لأنّها- كما يقولون- علّةٌ لفظية والأسلوب القرآني قد بُنِي على مراعاة المعاني لا الألفاظ، وهذا ليس بشيءٍ؛ لأنّ الفواصل- كما قلتُ- تابعةٌ للمعنى وخاضعةٌ لما يقتضيه المقام. [1]

والتّعبير بوصف الرُّبوبية مضافًا إلى ضميرهم يُوحي بأنهّم يبيتون سُجَّدًا وقيامًا للمُحْسِنِ إليهم برحمانيّته، والقائم عليهم برعايته، والمتكفِّل بهم بكرمه وفضله؛ ليُشعر بأنّ هذه العبادة هي عبادةُ شكرٍ

([1]) يُرَاجع: النّكت للرّماني(ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق محمد خلف الله أحمد والدُّكتور محمد زُغلول سلّام (ط دار المعارف، مصر، ط خامسة ٢٠٠٨م) ص٩٧، وخصائص التَّراكيب للدُّكتور محمد أبي موسى(ط مكتبة وهبة، ثانية ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م) ص٢٨٧، وعلم المعاني للدُّكتور بسيوني فيُود (ط مؤسسة المختار ، مصر، ط ثانية ١٤٢٥هـ=٢٠٠٤م) ص١٩٠.

وردّ جميلٍ؛ فهم يُحيون اللّيل رحمةً لأنفسهم ، وشكراً لفضله، ولذا فهم عابدون شاكرون!!.

كما يُبشِّرُ التّعبير بهذا الوصف بزيادة إحسانه إليهم وتمام رعايته لهم؛ وبالجملة هذا الوصف كأنّه يُومئ إلى جزاء عبادتهم، يُضاف إلى ذلك أنّ فيه تعظيمًا لله(سبحانه)وبيانًا لاستحقاقه هذه العبادة من (عباد الرّحمن).

وإضافة هذا الوصف إلى ضميرهم تُشعرنا بقرب (عباد الرّحمن) من جناب الله الأعظم ، فقد أضافهم إلى نفسه فقال: "لربهّم" ، وآثر هذا التّعبير على غيره –كأن يقول "لله" مثلاً– ليُومئ إلى هذا القُرْب الذي ليس هناك قربٌ أكرم ولا أفضل منه، فهو قربٌ من الرَّبّ (جلّ وعلا)، رزقنا الله إياه ومتّعنا به.وسبحان العليم بأسرار كتابه.

وقوله (سبحانه):"سُجَّدًا وقِيامًا"أي يُحْيُون ليلهم– كُلّاً أو بعضًا– بالصّلاة، وقد عبّر عن الصّلاة بركنين من أركانها–هما: السُّجود، والقيام– على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الجزئية، حيث أطلق الجزء– وهو السّجود والقيام– وأراد الكُلّ– وهو الصَّلاة– ، وقد آثر التّعبير القرآني التّعبير بالسّجود والقيام تنويهًا بشأنهما وتعظيمًا لقدرهما في الصّلاة، وذلك لأنّهما أفضل وأشرف أركان الصّلاة؛ إذ السُّجود حالةٌ أقرب ما يكون العبد فيها من الله، والقيام يظهر فيه التّذلُّل والخضوع له (سبحانه).

على أنّ في التّعبير عن الصّلاة بركنيها إطنابًا، وقد أفاد هذا الإطناب التّنويه بهذين الرُّكْنين والاهتمام بهما.

وبالتّأمّل في قوله (سبحانه):"سُجّدًا وقيامًا" من زاوية أخرى يتضح لنا أنّه حالٌ، ومجيئه حالًا لفائدةٍ ، هي بيان هيئة صاحب الحال وتقييد عاملها(الفعل)[1]؛ ومن ثمّ فقد كشفت الحال لنا بوضوح عن هيئة (عباد الرّحمن) في ليلهم، وصوّرتهم وهم يُحيون ليلهم بالسُّجود والقيام لله كأنّنا نشاهدهم، كما قُيّد الفعل "يبيتون" بهذه الحال، أي يبيتون مُصلِّين لربهم، ومجيء الفعل يبيتون مضارعًا أفاد الاستمرارالتّجدّديَّ، وهذا أنسب لمقام المدح.

والقيام جمع قائم أو مصدر أُجري مجراه- لشموله للكثير بحسب أصله، وإنْ كان مؤولاً بالوصف على هذا- وقدّم السُّجود عليه ولم يُعكس- وإنْ كان متأخرًا في الفعل- لأجل الفواصل، ولأنّه أقرب ما يكون العبد فيه من ربّه (سبحانه)، كما أنّ فيه تعريضًا بالمستكبرين عنه في قوله (تعالى) : "وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً" [2]

قال البقاعي (رحمه الله) :"ولما كان السُّجود أشدَّ أركان الصَّلاة تقريباً إلى الله، لكونه أنهى الخضوع -مع أنّه الذي أَبَاهُ الجاهلون- قدّمه لذلك، وليعلم بادئ بدء أنّ القيام في الصّلاة، فقال : "سُجَّداً" وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقاً؛ لأنَّ السُّجود على حقيقته؛

---

(1) جواهر البلاغة للسَّيد أحمد الهاشمي (ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط سادسة، بدون تاريخ) ص١٣٨.

(٢)سورة الفُرْقان:٦٠، يُرَاجع :البحر المحيط ج٦ص٤٧٠، و حاشية الشّهاب ج٦ص ٤٣٦، وروح المعاني ج١٩ص ٤٥، و التّحرير والتّنوير ج ١٩ص٧٠.

فيتمحّض الفعلان للصَّلاة، فقال:"وقياماً" أي ولم يفعلوا فعل الجاهلين من التكبُّر عن السُّجود ".[1]

وفي قوله (سبحانه):"سُجَّدًا وقيامًا" طباقٌ، يُوحي بالمبالغة في مدحهم والثّناء عليهم،لأنّهم في ليلهم بين ساجد وقائم، وهذا مدح لهم بصفتيْ كثرة العبادة و الإخلاص فيها.

وإذا كانت هذه الآية قد أفادت المدح والثّناء على(عباد الرَّحمن)، وتضافرت كُلُّ الخصوصيات الأُسلوبية فيها على الوفاء بهذا الغرض، فإنّ فيها تحريضًا واضحًا على القيام باللّيل للصّلاة.

الصِّفة الرَّابعة: الخوف من عذاب الله.

وقد أفاض بهذه الصّفة قوله (تعالى) في الآية الثّالثة التي هي الخبر الثّالث: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً۞ إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[2]؛ لأنّ الحقّ(سبحانه) يصفهم فيه بأنّهم يبتهلون إليه في الدّعاء بأنّ يَصْرِف عنهم عذاب جهنّم، وفي هذا كناية عن شدّة خوفهم من عذاب الله(عزّ وجلّ)، و الآية ليست منقطعة الصّلة بالآيتين السّابقتين، بل هي مرتبطة بهما ارتباطًا وثيقًا بل معجزًا ؛ لأنّ الله (تعالى) لمّا وصفهم في الآيتين السّابقتين بحسن معاملتهم للخَلْق واجتهادهم في عبادة الحق، كانوا مظنة أن يتّهموا بألا يخافوا عذاب جهنّم؛ فوصفهم الله في هذه

([1]) نظم الدُّرر ج١٣ ص٤٢٢.

([2])سورة الفُرْقان:٦٥-٦٦.

الآية بأنّهم يخافون العذاب، ويبتهلون إلى الله (تعالى) في صرفه عنهم، غير مُتَّكلين على أعمالهم، وفي هذا "أمارة على شدّة خوفهم من الذُّنوب؛ فهم يسعون في مرضاة ربّهم لينجوا من العذاب"[1]

وبهذه الآية تكتمل صّورة (عباد الرّحمن) التي تُؤكّد أهليتهم للتّعبير عنهم بعنوان العبوديّة والنّسبة إلى الرّحمن ، وذلك لأنهم عبادٌ مخلصون، عبدوا الله، وأخلصوا في العبادة، وتحلّوا بكُلّ الصّفات العالية، و كان هذا يُسوِّغ لهم أن يأمنوا عذاب الله، لكنّهم مع ذلك لم يُصبْهم العُجْب ولم يأمنوا عذابه (تعالى)، ولم يطلبوا منه الأجر على سبيل الاستحقاق، بل هم أكثر النّاس عبادةً وخشيةً لله، وهذا قمة المدح، عبادةٌ مع خشيةٍ، وعملٌ مع خوفٍ، وانظر إلى متعلق خوفهم فإنّه يُضيف إلى مدحهم وثنائهم مدحًا وثناءً، إنهم لا يخافون على شيءٍ من الدُّنيا وحطامها، إنّما يخافون من غضب الله وعذابه" رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ".

وهذا الدُّعاء وإنْ عاد عليهم بالنّفع- لما فيه من طلب النّجاة من عذاب النّار- يتضمَّن أمورًا تفيض بمدحهم والثّناء عليهم:

الأوّل- أنّ فيه تحقيقًا لإيمانهم بالبعث والجزاء"[2]، وهذا ما لم يتحقّق ممن تعرّض لهم سياق الآيات قبل آيات وصف (عباد الرّحمن).

الثّاني- أنّ فيه إشارةً إلى أنّهم لا إعجاب عندهم، بل هم وَجِلُون من عذاب النّار، و الحامل لهم على ذلك الإيمان بالآخرة التي كذّب بها

---

(1) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٧١.

(2) البحر المحيط ج٦ ص٤٧٠.

الجاهلون، وهذا المعنى مدحه الله في سياق آخر في قوله (تعالى) : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾[1]، فدعوتهم هذه تُؤذن بأنهّم مع اجتهادهم في تهذيب نفوسهم مع الخلق والخالق خائفون مُبتهلون إلى الله بأن يصرف عذاب جهنّم عنهم. [2]

الثّالث- أنّهم بدعائهم لربهّم وسيدهم وخالقهم مازالوا في إطار العبادة وما برحوها، بل هم في قلبها؛ لأنّ "الدّعاء -كما قال سيّد الخلق (ﷺ)- مخُّ العبادة"[3]وفي رواية أُخرى:"هو العبادة"[4]، يلجأ إليه (عباد الرّحمن) في يُسْرِهم وعُسْرِهم، ويتخذونه سلاحًا من أسلحة التقرُّب إلى الله(سبحانه) و خوض غمار الحياة، أمّا الكافرون الذين أبوا السُّجود للرّحمن فهم يستكبرون عنه، ولا يلجأُون إليه؛ ولذا توعَّدهم الحقّ (سبحانه) بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [5]

فهذه الأمور الثّلاثة قد تضمنها دعاؤهم السّابق ودلّ عليها، وهي تفيض مدحًا وثناءً يُضاف إلى ما سبق في سياق الآيات.وبالتّأمّل في

([1]) سورة المؤمنون:٦٠.

([2]) يُراجع: الكشّاف ج٣ ص٢٩٣، والبيضاوي ج ٤ص ٢٢٧و تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٢٨ وروح المعاني ج ١٩ص ٤٥.

([3])سنن التِّرمذي تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون عن أنس بن مالك (دار إحياء التُّراث العربي، بيروت) ج٥ ص٤٥٦.

([4]) مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون(دار الرِّسالة، ط أولى ١٤٢١هـ=٢٠٠١م) ج٣٠ص٢٩٨.

([5])سورة غافر:٦٠.

نسق الآية المباركة نرى البلاغة المعجزة مُتجليةً ، من خلال التّوخي الدّقيق- وإن شِئْتَ قُلِ المعجز- للخصوصيات الأسلوبية، وأوّل ما يُطلُّ علينا من ذلك مجيء الآية في إطار اسم الموصول وجملة صلته، وهذا يجعل ما جاء في جملة الصِّلة معروفًا مشهورًا، أو كأنّه كذلك، وفي هذا إيذانٌ بأنّ (عباد الرّحمن) معروفون مشهورون بما جاء في حيِّز اسم الموصول، فهم يلهجون دائمًا بدعاء ربّهم أن يصرف عنهم عذاب جهنّم، كما سبق بيانه في نظائره السّابقة.

وقولهم الذي حكاه الله (تعالى) عنهم:"يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنّم" يُوحي لنا بأنّ (عباد الرّحمن) كأنّهم متصورون أنّ جهنّم ستسعى إليهم، وأنّ بينها وبينهم لَدَدًا؛ بدليل أنّها ستقول" هل من مزيد" [1] كما حكى الله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَـلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[2] ، و في هذا تصويرٌ لفظاعة جهنّم وشدة خوف (عباد الرّحمن) منها!! فكأنّها قادمةٌ عليهم تريد أن تلتهمهم؛ ولذا فهم يَضْرَعُون إلى الله بأنْ يَصْرِفَها عنهم.

و لعلّ السرّ في مجيء صيغة المضارعة" يقولون" هو استحضار حالتهم العجيبة في هذا التضرُّع و التقرُّب إلى ربّهم بهذا الدُّعاء، فهم خائفون وجلون من جهنم(أعاذنا الله منها)، كما أنّ هذه الصيغة تفيد – كما يقول البلاغيون- الاستمرارالتَّجدُّدي بمعونة سياق المدح ومقام الثّناء، فهم مُنشِئُون لهذا الدُّعاء، ومستمرون عليه، لا ينقطعون عنه لحظة، بل هم باقون عليه إلى يوم القيامة، ولعلّ حكاية قولهم على

([1]) تفسير الشَّعراوي(أخبار اليوم) ج١٩ ص ٢٨٩٢.

([2]) سورة ق:٣٠.

الإطلاق دون تحديد وقت معين لدعائهم، قد أكَّد ذلك؛ ولذا فلا أميل إلى ما أشار إليه العلامة أبو السُّعود- في أحد قولين- من أنّهم يقولون ذلك في أعقاب صلواتهم[1]، إنمّا يبتهلون بذلك في عامة أوقاتهم.

وفي التّعبير بوصف الرُّبوبية دون غيره من أسماء الله وصفاته، استعطافٌ له (سبحانه)، واستدرارٌ لرحمته واستجابته لهم، وحسن ظنّ به (سبحانه)، فكأنهّم يقولون: يا من تُحْسِن إلينا كثيرًا وتجود علينا طويلاً وتتعهدنا بفضلك وكرمك، استجب لدعائنا واصرف عنّا عذاب جهنّم الذي أحاط بنا لا ستحقاقنا إياه إلا أن يتداركنا عفوك ورحمتك وكرمك. [2]

واختيارهم كلمة"اصرف" دون غيرها من نحو قولنا مثلاً: (ابعد) ، وذلك لأنّ الصّرف، يعني عدم إيرادهم على النّار بالكليّة، قال الرّاغب- الصّرف ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ أو إبداله بغيره "[3]، أما البُعْد فهو لا يعني تحوُّلهَا عنهم، وإنمّا بُعْدها عنهم فقط، والبُعْد عنها ليس كافيًا لهم؛ لأنّها -كما قال الله - عنها-:﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً ﴾.[4]، وفي هذا إزعاجٌ لهم وتخويفٌ، قد يصل إلى حدّ العذاب ولهذا آثروا الطَّلب بالفعل (اصرف) دون (ابعد)؛ لأنّه أبلغ في النّجاة من العذاب وما دونه وهو التّخويف، ومن العجيب اللّافت للنّظر أنّ الله (جلّ وعلا) لم يُطْلَب منه في القرآن كُلِّه النَّجاة من

---

(1)تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٢٨.

(2) يُرَاجع : نظم الدّرر ج١٣ص٤٢٣.

(3) المفردات للرّاغب، مادة:صرف.

(4) سورة الفُرْقان:١٢.

النّار بالفعل(ابعد) وإنمّا بالفعلين (اصْرِف) و(قِنا) ولعلّ هذا لما ذُكِر سابقًا والله أعلم بأسرار كتابه.

على أنّ الطاهر بن عاشور(رحمه الله) قد ذكر أنّ المراد بصرف العذاب، هو إنجاؤهم منه بتيسير العمل الصالح وتوفيره واجتناب السيئات[1]، و التّعبير عن السَّيئات بعذاب جهنّم حينئذ يكون من باب المجاز المرسل الذي علاقته المسببية، حيث أطلق المسبّب وهو عذاب جَهَنّم على سببه وهو السَّيئات، وفي ذلك إشارةٌ إلى سببيّتها في عذاب جَهنّم، كما أنّ في التّعبير عنها بعذاب جَهنّم تهويلاً في خطرها وتنفيرًا من اقترافها، ولا أميل إلى هذا؛ لأنه لا يستقيم مع قوله(تعالى):"إن عذابها كان غرامًا".

واختيارهم اسم (جَهَنَّم) دون غيره من أسماء النّار؛ لأنّه يقطر شدّة وتجهُّمًا، وكأنّ في ذلك تعليلًا لاستجارتهم بربّهم، واستعطافهم له بأنْ يُجيرهم من عذابٍ بعيدٍ قعرُه شديدٍ ألمُه.

على أنّ (عباد الرّحمن) قد قدّموا دعاءهم بالنّجاة من عذاب النّار على طلبهم- في آخر الآيات- أن يَهَبَهم اللهُ (سبحانه) من أزواجهم وذرياتهم قرَّة أعينٍ وأن يجعلهم للمتّقين إمامًا، وذلك "اهتماماً بدرء المفسدة، وإشعاراً بأنّهم مستحقّون لذلك وإن اجتهدوا ؛ لتقصيرهم عن أن يُقَدِّروه سبحانه حقّ قَدْرِه"[2]، أو"لعدم اعتدادهم بأعمالهم ووثوقهم على استمرار أحوالهم"[3] وفي ذلك هضمٌ لأنفسهم في ساحة الدُّعاء،

([1]) التّحرير و التّنوير ج ١٩ ص٧١.

([2]) نظم الدُّرر ج١٣ ص٤٢٣.

([3]) تفسير البيضاوي ج٤ ص٢٢٧.

ساحة التّضرُّع والخشوع لله (عزّ اسمه) ، و لعلّ هذا أدعى للقبول والإجابة.

ثُمّ جاء قوله (تعالى):" إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً " تعليلاً لطلبهم النّجاة من عذاب النّار، وهو يكشف لنا عن سوء حال عذابها، وقد فُصلت هذه الجملة، عن جملة طلبهم النّجاة من عذاب النّار، لشبْه كمال الاتّصال بينهما؛ إذ كانت الجملة الثّانية بمثابة جواب عن سؤالٍ أثارته الأُولى؛ حيث أثار قولهم:"ربَّنا اصرفْ عنَّا عذاب جهنَّم" سؤالاً مؤدّاه لِمَ تطلبون من ربّكم النّجاة من عذاب جهنّم؟ فأُجيب بقوله:" إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً "، وهذا الجواب يجوز أن يكون على الحكاية من كلام القائلين، ويجوز أن يكون من كلام الله (تعالى) معترضًا بين اسميْ الموصول، وعلى كلٍّ فهو تعليلٌ لطلب صرف عذاب جهنّم عنهم، لكنّه إنْ حُمِل على أنّه من كلام (عباد الرّحمن) فالمراد منه تأكيد الرّغبة في النّجاة من النّار وعذابها، وإنْ حُمِل على أنّه من كلام الله(تعالى) فالمراد منه تقبيح النّار والتّنفير منها، وذلك لتأكيد طلب صرف عذابها عنهم.

وهذه الجملة نرى فيها من الدّقائق الأسلوبية، والخصائص التّعبيريّة التي تعاونت على الوفاء بتحقيق الغرض المسوق له النّظم الجليل، فقد صُدّرت بأداة التّوكيد(إنّ)؛ فجاءت مؤكّدةً للاعتناء بشأن الخبر؛ وذلك لتكشفَ عن السِّرِّ في طلب النّجاة مـــــن عذاب جهنّم وتُعلِّلَ له .

وآثر التّعبير القرآني المجيء بـــ (كان) في قوله"كان غرامًا" لتأكيد عراقة عذاب جهنّم، وكأنّه يقول عن عذابها هو مجبول على ذلك، وفي هذا تفظيعٌ للعذاب وتهويلٌ له، وقوله:"غرامًا" من الكلمات القرآنية

الثّرية، التي تتّسع لتستوعب كلّ ما قاله المفسرون في توضيحها وتفسيرها دون تعارض، ومن ثمّ أشار جمع من المفسرين المدقّقين إلى عدّة دلالات لهذه الكلمة، ولعلهم يشيرون بذلك إلى سعة دلالتها وكثرة عطائها.

فالبغوي يقول:" " أيْ: مُلِحًّا دائمًا، لازمًا غيرَ مُفارِقٍ مَنْ عُذِّبَ به من الكفَّارِ، ومنه سُمِّي الغَرِيمُ لطلبه حقَّهُ وإلحاحِهِ على صاحبه ومُلازَمَتِهِ إيَّاهُ..والغرامُ: الشَّرُّ اللازمُ، وقيل: "غَرَامًا" هلاكًا"[1]، و البقاعي (رحمه الله) يقول:" أي هلاكاً وخسراناً مُلِحّاً محيطًا بمن تعلّق به مُذلّاً له ، دائماً بمن غُرِي به، لازماً له لا ينفكُّ عنه "[2] والطّاهر بن عاشور يقول:" والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائمُ، وغلب إطلاقُهُ على الشَّرِّ المُستمرِّ"[3] و بعض المفسرين كان يقتصر على معنى واحد ويُعلّل له، فالبيضاوي يقول:" لازمًا ومنه الغريم لملازمته"[4] ومال الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ) في أضواء البيان إلى هذا المعنى وحاول أنْ يستدلّ عليه؛ فقال:" وهذا المعنى دلّت عليه آيات من كتاب اللَّه ؛ كقوله (تعالى) : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(التوبة/٦٨) ، وقوله : ﴿ لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾(الزخرف/٧٥) ، وقوله : ﴿ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾(الفرقان/٧٧) ، وقوله (تعالى):﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَاباً﴾(النبأ/٣٠)، وقوله: ﴿لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ

([1]) تفسير البغوي ج ٦ص٩٤ويُراجع : الدُّرّ المنثور للسُّيوطي (دار الفكر، بيروت، لبنان) ج ٦ص٢٧٤.

([2]) نظم الدُّرر ج١٣ ص٤٢٣.

([3]) التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧١.

([4]) البيضاوي ج٤ص٢٢٧.

﴾(آل عمران/٨٨) ، وقوله : ﴿ وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴾(فاطر/٣٦)، وقوله (تعالى): ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾(الإسراء/٩٧) ، وقوله (تعالى) : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ العَذَابَ ﴾(النساء/٥٦) ، إلى غير ذلك من الآيات ". [1]

وأميل إلى حمل كلمة(غرامًا) على كُلّ هذه المعاني ؛ لأنّها لا تعارض بينها، والحمل عليها أوفق بسياق التّعليل لطلب النّجاة من عذاب جَهَنّم.

وقوله (تعالى):"إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً" تعليلٌ لدعائهم المذكور بسوء حالها في نفسها، وقد فُصِلت هذه الجملة عمّا قبلها لشِبْه كمال الاتّصال بينهما، وصُدِّرت بحرف التّوكيد(إنّ) لتوكيد مضمون الخبر، والفعل:(ساءت) يحتمل أن يكون في معنى (بئست) وأن يكون بمعنى أحزنت.وعلى الاحتمال الأوّل فهو من الإنشاء غير الطّلبي، وعلى الثّاني هو من الخبر.

وإذا حُمِل على أنّه للإنشاء، كان لإنشاء ذمّ اتخاذ جهنّم مستقرًا ومقامًا، وأوحى بأنّها تناهت في كلّ ما يحصل منه سوءٌ ؛ لأنّه في معنى (بئس) التي تُنْبِئ عن المساوئ كُلّها، و يزيد عن (بئس) أنّه يُضيف إلى إنشاء الذّم التّعجب أو التّعجيب من فظاعة اتّخاذ جَهَنّم مستقرًا ومُقامًا، وقد أفادت دلالتا الذّم والتّعجب المبالغة في سوء عذاب

([1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشّنْقِيطي(دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م) ج٦ص ٧٤.

جَهَنّم وقُبْحه، وهذا يناسب التّعليل للنّجاة منه ويُؤكّده،كما أنّ فيه من التّنفير من جَهَنّم ما فيه، هذا من ناحيةٍ.

ومن ناحيةٍ أخرى فإنّ في قوله (تعالى):" إنّها ساءت مستقرًا ومقامًا" إيضاحًا بعد إبهامٍ أو تفصيلاً بعد إجمالٍ، غايته تمكين المعنى في ذهن السّامع وتثبيته في نفسه، وذلك بناء على جعل المخصوص بالذّم خبرًا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف؛ إذ الكلام حينئذ يكون مكونًا من جملتين إحداهما مبيّنة للأُخرى.

توضيح ذلك أنّ الفعل(ساء) يجري مجرى (بئس)، وفيه ضمير مبهمٌ فاعله يُفسِّره المُميِّز(مستقرًا ومقامًا) فيكشف شيئًا من إبهامه، ثم يأتي المخصوص بالذّم وهو ضمير محذوف، تقديره:هي، يعود على جَهَنّم. وهو إمّا خبر لمبتدأ محذوف أو مبتدأ لخبر محذوف، أو مبتدأ والجملة قبله خبر، وعلى الاحتمال الأخير فليس من الإيضاح بعد الإبهام؛ لأنّ الأسلوب حينئذ جملة واحدة، وعلى الاحتمالين الأوّل والثّاني يتكوّن الأسلوب من جملتين؛ لأنّ (عباد الرَّحمن) حينما قالوا عن جهنّم: إنّها ساءت مستقرًا ومقامًا،كأنّ سائلًا سأل:مَنْ المذموم ، فقيل : المذموم هي أو هي المذموم، والضَّمير يعود على جَهَنّم، فأفاد الكلام توضيحًا للمعنى بعد إبهام، ومن ثَمّ يستقرُّ في نفس المتلقّي مُقرَّرًا أكيدًا.

وإذا كان الفعل " سَاءتْ " بمعنى أحزنت؛ يكون المفعول محذوفاً أي ساءتهم، والفاعل ضمير جهنّم، وجاز في " مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً " أن يكونا تمييزين وأن يكونا حالين قد عطف أحدهما على الآخر، بينما تعيّن في الاحتمال السّابق كونهما تمييزين.

وأميل إلى احتمال كونها بمعنى(بئس)؛ لأنّ فيه من الدّلالات والأسرار البلاغية، ما يجعله أنسب بالمقام والسّياق و أوفى للغرض المسوقِ له النّظمُ الجليلُ.

والمستقَرُّ: مكان الاستقرار. والاستقرارُ و القَرَار واحدٌ. وَالمُقَامُ بضم الميم: اسْم مكان الإقامة، وقرأت فِرْقةٌ (وَمَقَاماً) بفتح الميم أي مكان قيام ، والجمهور بالضَّم أي مكان إقامة "[1] وقد وقف المفسرون عند هاتين اللّفظتين لمحاولة استكناه السّر في التّعبير بهما معاً؛ فذكروا احتمالين :

الأوّل –وهو الظّاهر–، أنّ قوله (وَمُقَاماً) معطوفٌ على سبيل التّوكيد؛ حتى لا يظنوا أنّ النّار مدةٌ وتنتهي، ثم يخرجون منها، فهي مستقرهم الدّائم ومُقامهم الذي لا يُفَارقونه.

وحينئذ يبدو الاستقرارُ والإقامةُ كأنّهما مترادفان وإن اختلفا في اللّفظ.وقد عقّب الألوسي على هـــــذا الاحتمال بقوله:" "والظّاهر أن (مستقرًا ومقامًا)كقوله:

وألفي قولها كذبًا وميناً

وحسّنه كونُ المقام يستدعي التّطويل أو كونه فاصلة ..."[2]

ولستُ أوافقه–وهو من الأجلاء– على أن يكون قوله

([1])البحر المحيط ج٦ ص٤٧٠ ويُرَاجع : تفسير السَّمرقندي ج٥ ص٥٤٥ ، وفتح القدير للشَّوكاني ج ٤ص٨٦.

([2]) روح المعاني ج١٩ص٤٥.وصدر هذا العجز:وقدَّدتِ الأديم لراهشيه.

(تعالى):"مستقرًا ومقامًا " كقول عديّ بن زيد العبادي[1] "كذبًا وميناً"؛ لأنّ الشّاعر قد تكون القافية ألجأته إلى هذا التّعبير، وهذا بابٌ معروفٌ ومقرَّرٌ عند العلماء، وقد أَلَّف في الضَّرورات الشِّعرية كثيرٌ من العلماء، أما النّظم الجليل فهو كلام الله القادر الّذي يُعبّر بما يُريد عمّا يُريد بدون إلجاءٍ، ومن المقرّر عند علمائنا وسادتنا أنّ كُلّ لفظٍ- بل كُلّ حرفٍ- موضوعٌ في كتاب الله (تعالى) وضعًا معجزًا، لا تطيقه البشر، مهما أُوتوا من فصاحةٍ وبلاغةٍ، ظهر لنا السّر أم خفي.

كما لا أُوافقه على قوله:" وحَسّنه كونُ المقام يستدعي التّطويل" ووددتُ لو أنّه استبدل الإطناب مكان التّطويل ؛ لأنّ الإطناب بلاغةٌ، والتّطويل ليس بلاغةً؛ بل هو كما قال البلاغيون:أن يكون اللّفظُ زائدًا على أصل المراد لا لفائدة، واللّفظ الزائد غير مُتعيَّن. [2]

وإذا كُنّا نحترس من إطلاق هذا الكلام خارج القرآن الكريم، فإنّنا في القرآن ينبغي أن نكون أشدّ حرصًا؛ "لأنّ الحكم بزيادة كلمة من الكلمات وخلوها عن الفائدة مرتبطٌ بالمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، فإذا كان المقام يقتضي التّأكيد، فلا يمكن أن نحمل الكلمة على

([1])طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي،تحقيق: محمود محمد شاكر (دار المدني ، جدة، بدون تاريخ)ج١ص٧٥، و معاهد التّنصيص على شواهد التلخيص، للشّيخ عبد الرّحيم بن أحمد العباسي تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد(عالم الكتب ، بيروت ١٣٦٧هـ= ١٩٤٧م) ج١ص٣١١.

([2])الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق الشّيخ بهيج غزاوي (دار إحياء العلوم، بيروت، ط الرابعة ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م)ص١٧١.

الزِّيادة؛ لأنّ التّرادف يفيد التّأكيد، ثمّ إنّ الكلمات المترادفة لا تفيد معنى واحدًا، بل ذكر كثيرٌ من العلماء أنّ كُلّ لفظٍ من الألفاظ المترادفة له ظلالٌ جانبيةٌ وإفاداتٌ جزئيةٌ تختلف عن الآخر؛ ولذا لا نستطيع القول بأنّ أحد اللّفظين المترادفين زائدٌ، بل إنّه مؤكّدٌ للآخر، والمقام-كما ذكرتُ- قد اقتضى هذا التّأكيد". [1]

الآخر:أنّهما متغايران، وقد أراد الحقّ(سبحانه وتعالى) بهما نوعين من النّاس؛ فالمستقر للعُصَاة من أهل الإيمان؛ فإنّهم يستقرون فيها ولا يقيمون، والمُقام وهو بمعنى الإقامة- أي الخلود- للكفّار . [2]، وكأنّ الله(تعالى) يقول: ساءت موضعًا لِمَنْ يَستقِرُّ فيها بدون إقامةٍ مثل عصاة أهل الأديان ولمن يُقِيم فيها من المكَذِّبين للرُّسل المبعوثين إليهم!!

وأميل إلى احتمال كونهما للتّوكيد، وحسّنه -كما ذكر الألوسي- أنّ المقام يقتضي الإطناب والفواصل يناسبها (مقامّا)، ويُؤكّده قوله (سبحانه) في جزاء (عباد الرّحمن):﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾[3] فهما للتوكيد لا غير.

ويُؤكّد ذلك قول أبي منصور الجواليقي(ت٥٤٠هـ) في "شرح أدب

([1])علم المعاني للدُّكتور بسيوني فيُود ص٤٠٧.

([2])يُرَاجع: تفسير البيضاوي ج٤ص ٥٠٩،وفتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب للطِّيبي تحقيق مجموعة من الباحثين(مجموعة رسائل) بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ج ٧ص.٢٢٧،ونظم الدّرر ج١٣ ص ٤٢٣،والتّحرير والتّنوير ج ١٩ ص٧١.

([3]) سورة الفُرْقان:٧٦.

الكاتب لابن قتيبة":"والواجد: الغنيّ، وأنشد: الحمد لله الغنيّ الواجد.

والواجد بمعنى الغنيّ، وهو تأكيدٌ له، وهم إذا أرادوا توكيد الكلمة بلفظها أتوا بلفظة في معناها من غير لفظها كما قال:
وألفى قولها كذبًا ومَيْنًا

والمَيْنُ :الكذب؛ فيكون أحسن من تكرارها بلفظها"[1]

وأرى أنّ هذه الجملة- وما قبلها من دعاء- بما فيها من ذمٍّ وتعجبٍ وتوكيدٍ وإيضاحٍ بعد إبهامٍ تكشف لنا عن الحالة النّفسيّة التي كان عليها (عباد الرّحمن) في دعائهم، فهم مُبتهلون إلى ربّهم غاية الابتهال، منفعلون غاية الانفعال، وقد استخدموا كُلّ الأساليب التي تَشِي بذلك. وقد أضاف القُرْطبي ملمحًا جميلًا في قولهم: " إنّها ساءت مستقرًا ومقامًا "، هو "أنهم يقولون ذلك عن عِلْمٍ، وإذا قالوه عن عِلْمٍ، كانوا أعرفَ بعِظَم قَدْر ما يطلبون؛ فيكون ذلك أقربَ إلى النُّجْح"[2]

وفي قائل جملتْي" إنّ عذابها كان غراماً، إنّها ساءت مستقرًا ومقامًا"وارتباطهما عدّة احتمالات لَخَّصها العلامة الزّمخشري في قوله:"والتّعليلان يصحُّ أن يكونا متداخلين ومترادفين، وأن يكونا من كلام الله وحكايةً لقولهم".[3]

([1])شرح أدب الكاتب لابن الجواليقي تقديم السّيد مصطفى صادق الرّافعي(مكتبة القدسي، القاهرة، ١٣٥٠هـ) ص٣٢٥.

([2]) القُرْطبي ج ١٣ص ٧٢.

([3])الكشّاف ج ٣ص ٢٩٨، ويُراجع : البيضاوي ج٤ ص٢٢٧ ، والتّسهيل لعلوم التّنزيل ج٣ص٨١ ، و تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٢٨ ، وروح المعاني ج ١٩ص ٤٥.

وعقّب الطِّيبي(ت٧٤٣هـ) عليه بقوله :" أن يكونا متداخلين "، أي: يكون قوله:" إنّ عذابها "تعليلاً لقوله:"اصرفْ عنّا عذاب جهنّم" وقوله:" إنّها ساءت "تعليلاً لقوله:"إنّ عذابها كان غراماً".

وكونهما مترادفين أن يكونا تعليلين لقوله:" ربنا اصرفْ عنّا عذاب جهنّم".قال الإمام: كلاهما يمكن أن يكون ابتداء كلام الله، ويمكن أن يكون حكاية لقولهم؛ فقوله :"إنّ عذابها كان غراماً"إشارة إلى كونها مَضَرَّةً خالصةً عن شوائب النّفع، وقوله :"إنّها ساءت مستقراً ومقاماً" إشارة إلى كونها دائمة". [1]

على أنّ أبا السُّعود والألوسي لم يُعْجبْهما أن تكون الجملة الثّانية تعليلاً للأُولى، وكذا جعل التّعليلين من جهته (تعالى)، وذلك لخلوّ هذه التوجيهات من المبالغة في شدّة خوف(عباد الرّحمن) الذين يتحدّث عنهم السّياق الكريم. وكأنّهما يميلان إلى أنّ جملة "إِنَّها ساءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً" تعليلٌ لدعائهم المذكور بسوء حالها في نفسها، إثر التّعليل بسوء حال عذابها، فهما مترادفان- كما قال الزّمخشري- ، وترك العطف بينهما للإشارة إلى أنّ كُلًّا منهما مستقلٌ بالعِلّيّة [2]

و مما يجب التّنبُّه له أنّ أبا حيان فهم التّرادف الذي ذكره الزّمخشري فهمًا آخر، هو أن تكون الجملتان: الأُولى والثّانية بمعنى واحدٍ؛ ولذا راح يردّ عليه، كما أنّه استظهر أن تكون الجملتان من كلام الدّاعين، وذلك في قوله:" والظّاهر أنّ التّعليلين غيرُ مترادفين، ذكر أولاً لزوم عذابها ، وثانياً مَسَاءة مكانها، وهما متغايران وإن كان يلزم

([1]) فتوح الغيب ج ٧ص ٥٠٩.

([2]) يُرَاجع :تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٢٨ ، وروح المعاني ج ١٩ص ٤٥.

من لزوم العذاب في مكان ذمّ ذلك المكان . وقيل : هما مترادفان ، والظّاهر أنّه من كلام الدّاعين وحكاية لقولهم . وقيل : هو من كلام الله" [1]

أمَّا فهمه للتّرادف بهذا المعنى فلم يقصده الزّمخشري، لأنّه يريد من كونهما مترادفين أن يكونا تعليلين لقوله:" ربّنا اصرفْ عنّا عذاب جهنّم"، كما وضّح الطّيبي، ولم يُرد أنّ المعنى فيهما واحدٌ، وإنما تكشف كُلّ جملة منهما عن جهةٍ من جهات القُبْح لجهنّم؛ فالزَّمخشري يريد من التّرادف مجيء الجملة الثّانية بعد الأُولى للتّعليل لقولهم"اصرفْ عنّا عذاب جهنّم" وأبو حيان فهمه على أنّه تتابع الجملتين على معنى واحد ؛ ولذلك استظهر عدم التّرادف.

وأمَّا استظهاره أن تكون الجملتان من كلام (عباد الرّحمن)، فهذا ما مال إليه أبو السُّعود والألوسي، ولعلّ ذلك لأنّ الحمل عليه يُنبئ بشدّة خوف (عباد الرّحمن) من عذاب النّار ومن الذُّنوب والمعاصي التي تجرُّ إليه، وهذا يناسب سياق مدحهم والثّناء عليهم.

غير أنّنا إنْ وقفنا على توجيه حملهما على أنّهما من كلام الله يتجلّى لنا جواز الاحتمالين، وهذا ما مال إليه الزَّمخشري والبيضاوي وغيرهما، لأنّه يُوحي بشدّة عذاب جهنّم وفظاعة قُبْحه، وذلك لتأكيد دعاء (عباد الرّحمن) بصرف عذاب جهنّم عنهم وللتّنفير منه ومما يجرُّ إليه، وهذا ليس ببعيد –أيضًا– من السّياق.

([1])البحر المحيط ج٦ ص٤٧٠.

الصِّفة الخامسة: الاعتدال في الإنفاق.

وقد تجلّت هذه الصّفة في قوله (تعالى):﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾ [1]، وهذا هو الخبر الرّابع، "وهو اسم موصول وصلته، والصّلة جملة شرطية لها فعل شرط هو قوله"أنفقوا" ولها ثلاث جمل، هي جواب الشّرط، هذه الجمل الثّلاث شرحٌ وتحليلٌ لحقيقةٍ واحدةٍ، تناولتها من جهات:نفي الإسراف، ونفي التّقتير، وكان يمكن أن يكون كافيًا لأنّه دالٌّ على الوسط دلالة لزوم، ولكنّ الآية نصّت على الوسط لأنّه الجوهر المطلوب وله مزيد عناية"[2]

قال الرّاغب: "السَّرف:تجاوز الحدّ في كُلّ فعلٍ يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر". [3] والتّقتير عكسه ، فالحقّ(جلّ وعلا) يمدح (عباد الرّحمن) بأنّهم إذا أنفقوا على أنفسهم أو عيالهم ليسوا بالمسرفين في إنفاقهم؛ فلا ينفقون فوق الحاجة، ولا بالبخلاء؛ فيقصرون في حقِّهم وفيما يجب عليهم، بل ينفقون بقدر الحاجة، بلا إسرافٍ ولا تقتيرٍ، ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ ، وصنيعهم هذا هو عين العَدْل؛ لأنّه بَيْن الطّرفين المذمومين، وهما الإسراف والتّقتير، وخيرُ الأمور أوسطُها، وهو ما أمر الله(تعالى) به رسولَه(ﷺ)في قوله (سبحانه): ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ، وَلا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً

([1]) سورة الفُرْقان:٦٧.

([2])دلالات التّراكيب ص٣٧٠.

([3]) المفردات للرّاغب مادة: سرف.

مَحْسُوراً﴾[1]

فالظّاهر أنّ الغرض الرئيس من الآية المباركة هو مدح (عباد الرَّحمن) بالقصد في الإنفاق، لكن من ينعم النّظر فيها يجد أنّ الحق (جلّ وعلا) قد أدمج في هذا المعنى الذي مدحهم به معاني أُخر؛ إذ استتبع [2] مدح (عباد الرَّحمن) بالقصد في معيشتهم، مدحهم بأنّهم سببٌ في عمارة الأرض؛ إذ هم يعملون فيها بجدٍّ ونشاطٍ ، وذلك لأنّ الإنفاق- الذي مُدِحوا بالقَصْد فيه- لن يتأتَّى لهم إلا بالعمل الجادّ والسّعي الدَّءُوب فيما يعود عليهم بالمال، الذي يدرُّ عليهم دخلاً ينفقون منه، إذًا فوصفهم بالإنفاق يقتضي العمل والسّعي في الأرض ابتغاءً لفضل الله، وهذا يُؤكّد لنا أنّ (عباد الرَّحمن) ليسوا بعالةٍ على أحدٍ ، وإنمّا هم أصحاب اليد العُليا، الَّذين يُنفقون على غيرهم، ولا يُنْفَقُ عليهم، ويُعطون ولا يأخذون، ويتوكَّلُون ولا يتواكَلُون، تراهم باللّيل ساجدين قائمين، وتراهم بالنّهار يُعمِّرُون ويَبْنُون، لا يتَّكِلُون على عبادتهم، ولا يمدُّون أيديهم إلى غير الله، ولا يقفون على أبواب البشر، وإنمّا يقفون على بابه (سبحانه)، ومن ثمّ لا يُضيّعُون عيالهم بحُجّة العبادة لله والزُّهد في الدُّنيا، بل يُنفقُون عليهم بلا إسرافٍ ولا تقتيرٍ.

ولعلّ خير من يُضْرَبُ به المثلُ في التّحلّي بذلك من (عباد

([1])سورة الإسراء:٢٩.

([2]) الإدماج: هو أن يُضمّن كلامًا سيق لمعنى معنى آخر، والاستتباع هو المدح بشيءٍ على وجه يستتبع المدح بشيءٍ آخر.فالإدماج أعمُّ من الاستتباع؛ لأنّ الاستتباع خاصٌ بالمديح، أما الإدماجُ فيشمل المديح وغيره، وهما لونان بديعيان. المطوَّل ص٤٤٢.

الرّحمن)، هو أول جيل منهم، وهم صحابة النّبي(ﷺ)، فقد كانوا رهبانًا باللّيل فرسانًا بالنّهار، خرج أغلبهم من مكة تاركًا أمواله، ولما استقرّ بالمدينة كان من أثريائها، وأبو بكر ، وعثمان بن عفان، وعبد الرَّحمن بن عوف، خير شاهد على ذلك.

إذًا فالآية المباركة قد مَدَحَت (عباد الرَّحمن) بالاعتدال في الإنفاق، وقد استتبع المدحُ بهذه الصِّفة، مدحَهم بأنهّم يعملون ، وأنّهم من أصحاب اليد العُليا، والوصف بهاتين الصّفتين وإن جاء تابعًا للصّفة الأُولى لكنّه في الواقع ثابتٌ قبلها؛ لأنّ العدل يأتي في الرُّتبة بعد العمل والإنفاق؛ إذ يكون العدل في الإنفاق، ولا يكون الإنفاق إلا من مال، ولا مال بلا عمل.

على أنّ طريق الدّلالة على هذه الصّفات، هو في الصّفة الأُولى– وهي الاعتدال في النَّفقة– الكناية، حيث كنَّى بقوله:"لم يسرفوا ولم يقتروا" عن توسطهم وعدلهم في الإنفاق–كناية عن صفة– ، ومن المُسلَّم به عند أهل العلم أنّ الكناية تفيد التّوكيد والمبالغة؛ لأنّها بمثابة الدّعوى مع دليلها؛ وكأنّ الحقّ(عزّ وجلّ) يقول: إنّهم عدولٌ في إنفاقهم؛ لأنّهم توسَّطُوا فيه، ومن ثمّ كانت الكناية في موقعها أبلغ من غيرها؛ إذ لا يسدّ مسدَّها أيُّ أسلوبٍ آخر.

وطريق الدّلالة في الصّفتين الأُخريين– وهما العمل والإنفاق– المجاز المرسل الذي علاقته اللُّزومية، ويجوز أن يكون من مستتبعات التّراكيب، وهو الأَوْلى والأسهل؛ لأنّ اللُّزوم فيها ليس لزومًا عقليًا، لا يقبل الانفكاك، كما هي علاقة اللُّزوم في المجاز المرسل.

وبعد محاولة الوقوف على المقاصد التي سِيقت من أجلها الآية،

يحسن بنا أن نعيد قراءتها مرَّةً ثانيةً؛ لنقف على ملامح الإعجاز فيها؛ لأنّها –على وجازتها– قد بُنِيَت بناءً مُعجزًا، لا يطيقه البشر، مهما ارتقى بيانهم، يُنظر إليها من أيّة جهةٍ فتَشِعُّ بألوان المعاني، وأول ما يصادفنا من ذلك ويُطلُّ علينا، هو مجيء هذه الصّفة في إطار اسم الموصول، وهذا يُوحي لنا بأنهّم مشهورون بها عريقون فيها ، وكأنّ النّظم الجليل يُشعرنا بأنّ (عباد الرحمن) شأنهم وديدنهم الإنفاق، فدائمًا أيديهم هي العُليا، ودائمًا يُعطون ولا يأخذون.

وقد آثر التّعبير القرآني (إذا) على (إنْ) في قوله:"إذا أنفقوا"؛ ليُوحي بأنّ إنفاقهم أمرٌ متحقِّقٌ ومؤكّد وكثير، وليس قليلاً مشكوكًا فيه، والفعل الماضي أيضًا يُوحي بهذه المعاني، وكُلّ هذا يُؤكّد لنا أنّ الإنفاق من خصالـــــهم وشأنهم؛ فكأنّ النّظم يقول: والذين يُنفقون وإذا أنفقوا. [1]

على أنّ قوله (تعالى):"إذا أنفقوا" وإنْ أفاد تحقيقَ إنفاقهم وتوكيدَه من خلال إيثاره (إذا) على (إنْ) ، فقد أفاد من خلال الشَّرط أنّ هذا الإنفاق باختيارهم، وليس واجبًا عليهم، وهذا ما أوحى لعلمائنا الأجلاء أن يحملوه على الإنفاق غير الواجب يقول القُرطبي(رحمه الله):" وإنمّا التّأديب في هذه الآية هو في نفقة الطّاعات في المباحات"[2]

وقال الطّاهر بن عاشور:"وأُرِيدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ وذلك إنفاقُ المَرْءِ على أهْلِ بَيْتِهِ وأصحابِهِ لأنَّ الإنفاقَ الواجبَ لا يُذَمُّ

([1]) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٧١.

([2])تفسير القُرْطبي ج١٣ ص ٧٢.

الإسرافُ فيه، والإنفاقُ الحرامُ لا يُحْمَدُ مُطلقًا بَلَهْ أَنْ يُذَمَّ الإقتارُ فيه".[1]

ووصفُهم في إنفاقهم بأنهّم"لم يُسرفوا ولم يقتروا"تضمن نفى صفتيْ الإفراط والتّفريط عنهم ، في الإنفاق على أنفسهم ومن يعولون، وهاتان الصّفتان مذمومتان، وذلك لأنّ الإسراف سببٌ في ضياع مال الشّخص ومال الأُمّة، و التّقتير سببٌ في ضياع حياة الإنسان ومَنْ يعول.

وعُبِّر بالإسراف دون التّبذير؛ لأنّ الإسراف – وإن كان قبيحًا مذمومًا– أقلُّ قبحًا منه ؛ إذ هو جهلٌ بمقدار ما يُنْفَق أو كيفيته أو هو تجاوُز الحدِّ الَّذي يَقْتَضِيه الإنفاقُ بحسب حال المُنفِقِ وحال المُنفَقِ عليه....أمّا التّبذير فهو جهلٌ بمواقع الإنفاق ووضع المال في غير موضعه، "وأصله إلقاء البذر وطرحه؛ فاستُعير لكُلّ مُضَيِّع لماله، فتبذير البذر تضييع في الظّاهر لمن لم يعرف مآل ما يلقيه"[2]؛ ولهذا جعل الله المبذِّرين إخوان الشَّياطين في قوله (سبحانه)﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كانُوا إِخْوانَ الشَّياطِينِ ﴾ [3]، والمنفي عن (عباد الرَّحمن) هو الإسراف أمّا التّبذير فلا يقع منهم ألبتة؛ لأنّه يدلّ على سفهٍ وطيشٍ ليسوا مَظِنَّته، ولهذا روي عن ابن عباس(رضي الله عنهما) في قوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا ﴾ قال : هم المؤمنون لا

([1])التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٧١.

([2]) اللّسان ، مادة بذر.

([3]) سورة الإسراء:٢٧.

يسرفون فيقعون في معصية الله، ولا يقترون فيمنعون حقوق الله"[1]والله أعلم بأسرار كتابه.

على أنّ المفسرين قد اختلفوا في معنى الإسراف والقَتْر، و اختار أكثرهم في تحديد معناهما أنّ الإسراف هو: مجاوزة الحدّ في النّفقة على النّفس والغير، والقَتْر : التّقصير عمّا ينبغي ممّا لابد منه، وهذا الاختيار يُؤكّده قوله (تعالى) " وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً " أي وكان إنفاقهم بين ذلك " قواماً " عدلاً وقصداً وسطاً بين الإسراف والإقتار.[2]، وتحديد معنى كُلّ ذلك راجعٌ إلى عُرْف النّاس، في إنفاقهم وحالة المُنْفِق وحالة عياله، كما أشار ابن عطية والقرطبي.[3]

وإذا كنتُ قد ذكرت أنّ هذا التّعبير كنايةٌ عن اعتدالهم في النّفقة، فإن هذه الكناية قد تولّدت من الطّباق بين الإسراف والتّقتير المنفيين عنهما، وإذا كانت الكناية قد أثبتت لهم صفة الاعتدال في الإنفاق بطريقة بليغة،لأنّها بمثابة الدّعوى مع دليلها، فإنّ الطّباق قد أفاد المبالغة في مدحهم والثّناء عليهم؛ لأنّه نفى عنهم هاتين الصّفتين المذمومتين، وأبقاهم في الوَسَط بين الإسراف والتّقتير، وفي الوسطيّة غايةُ الخير، فهي مَظِنّة المداومة على الإنفاق، والإسلام رغّب في العمل الذي يدوم عليه صاحبه، "أما الإِسْرَاف فمن شَأْنه اسْتِنْفَادُ المال

([1]) الدُّر المنثور ج٦ص ٢٧٤.

([2]) يُرَاجع الكشّاف ج٣ ص٢٩٩ ، والبيضاوي ج٤ص ٢٢٧، والبحر المحيط ج ٦ص ٤٧١ ، وتفسير السّمرقندي ج ٢ص ٥٤٥ ، و تفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٢٩ ، وروح المعاني ج١٩ ص ٤٦.

([3]) المحرَّر الوجيز ج٤ص ٢٢٠ ، والقُرْطبي ج١٣ص ٧٢.

فلا يَدُومُ الإنفاقُ، وَأَمَّا الإِقْتَارُ فَمِنْ شأنه إمساك المال فَيُحْرَمُ مَنْ يَسْتَأْهِلُهُ".[1]

فالطّباق أفاد الكناية والتّنصيص على أنّ فعلهم من خير الأمور؛ وهذه الوسطيّة التي مدحهم اللهُ بها هي أساس الاقتصاد وعماد الإنفاق في الإسلام، وهي التي أُمِرَ بها النبيُّ (ﷺ) في القرآن الكريم ، وقد تمثَّلها في حياته الشّريفة، ودعا إليها ، وحثّ عليها في أكثر من حديث، ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبي الدرداء عن النّبيّ (ﷺ) قال: «مِنْ فِقْهِ الرَّجلِ رِفْقُه في مَعِيشتِه»[2] .و ما رواه أيضًا عن عبد اللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه (ﷺ): «ما عال من اقتصد»[3] .وروى الحافظ أبو بكر البزّار عن حذيفة قال: قال رسول اللّه (ﷺ): «ما أحسن القصد في الغنى، وما أحسن القصد في الفقر، وما أحسن القصد في العبادة»[4] .

ويُلحظ من هذا البيان النبويّ أنّ هذه الوسطيّة ينبغي أن تكون منهج حياة؛ إذ أدخلها النّبيُّ (صلوات الله عليه) في أسمى مجال وهو مجال العبادة في قوله:"وما أَحْسَنَ القَصْدَ في العبادة! "وكأنّه (صلى الله عليه وسلم) يدعو إلى جعل الوسطيّة في كلّ جوانب الحياة وشئونها؛

---

(1) التَّحرير والتَنوير ج١٩ ص٧١.

(2) مسند الإمام أحمد ج٣٦ ص٢٦.

(3) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة لشهاب الدِّين أحمد بن أبي بكر البوصيري (مكتبة الرشد ،الرياض) ج٧ ص١٥٩.

(4) مسند البزّار"البحر الزّخّار"تحقيق د محفوظ الرّحمن زين الله(مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة ط أولى١٤٠٩هـ) ج٧ ص٣٤٩.

لأنّها عين الاعتدال، ولعلّ هذا المعنى العام ما أوحى به- أيضًا- حذف المفعول فيما مدح الله به (عباد الرّحمن) في قوله:"إذا أنفقوا" فالمفعول محذوف، والغرض من الحذف العموم، وكأنّ النّظم الجليل يُقرّر في مدحهم أنّهم إذا أنفقوا أيّ شيء توخّوا فيه الوسطيّة والعدل، و لعلّ هذا المعنى أوفق بسياق مدحهم ، ويُؤيّده ما أشار إليه البيان النّبويّ السّابق الذي وسّع مجال القصد والاعتدال؛ ليشمل مجال عبادة الله مع مجال إنفاق المال.

ويجوز أن يُقدّر المفعول بالمال؛ لأنّ الإنفاق غالبًا ما يكون مالاً، وإذا حملناه على ذلك ، كان الحذف للإيجاز والاختصار، ويجوز أن ينزل الفعل المتعدي"أنفقوا" منزلة اللازم للتّركيز على صفة الإنفاق في ذاتها لتأصيلها في النّفوس بصرف النّظر عن نوع ما يُنفق.وأميل إلى الأوّل.

على أنّ في التّعبير بنفي الإسراف والتّقتير عن (عباد الرَّحمن) تعريضًا بالكافرين الذين رفضوا السُّجود للرَّحمن والذين تعرَّض لهم السِّياقُ من قبل، إذ كانوا" يُسْرِفُون في النَّفَقَة على اللَّذَّات... كما كانوا يُقْتِرُونَ عَلَى المَسَاكِينِ وَالضُّعَفَاءِ لِأَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ ثَنَاءَ العُظَمَاءِ فِي ذَلِكَ"[1] ، ومن ثم فإنّ النّظم الجليل يُعرّض بهم وباتصافهم بهاتين الصّفتين في معرض مدح (عباد الرّحمن) بعدم الاتصاف بذلك، وسوف يستمر السِّياق القرآنيّ في هذا التّعريض عند تنزيههم من صفات أخر.

([1]) يُرَاجع: التَّحرير والتَنوير ج ١٩ص٧١

ثم جاء قوله (تعالى):" وكان بين ذلك قواماً "ومعناه: وكان إنفاقهم بين الإسراف والإقتار وسطًا عدلاً، ولا يبعد هذا المعنى عن معنى الجملة السّابقة كثيرًا؛ ولذا فهذه الجملة مُؤكِّدة لمضمون الجملة السّابقة، وقد جاءت على سبيل الإطناب؛ لأنّ مقام المدح من المقامات التي تتطلب الإطناب وتتناسب معه.

وإذا كانت هذه الجملة تلتقي مع سابقتها في المضمون، فإنهّا تنفرد بإيحاءات لا توجد في سابقتها، وهذه الإيحاءات تُمَثِّل موقف (عباد الرَّحمن) في الإنفاق وتجعله بين الطّرفين، و تُضفي على هذا الموقف صفة العراقة، وتنال من صفتيْ الإسراف والتّقتير، وأوّل ما يسترعي الانتباه في نظم هذه الجملة، هو التّعبير بكان، وليس المقصود وصف إنفاقهم بما وصف في الزّمن الماضي فقط دون الحال والاستقبال، و إنمّا المراد مدحهم بما ذكر في كُلّ أحوال الزّمان؛ فكأنّه قال:كان ويكون وسيكون، لكنّه عبّر بكان ليدلّ على عراقة هذا الوصف وتحقُّقِه واستمراره، وفي هذا مبالغةٌ في مدحهم.

وقوله (عزّ اسمه)"بين ذلك" فيه تمثيلٌ لعَدْلهم، فهو يُصوّره لنا كأنّه أمرٌ محسوسٌ، يقف بين أمرين محسوسين وهما:الإسراف والتّقتير، فلا إلى هذا يميل ولا إلى ذاك، وفي ذلك غاية التّأكيد في إثبات قصدهم وتوسُّطهم، وفيه أيضًا إشعارٌ بمدح صنيعهم، فهم في الوَسَط، و في الوَسَط الخير دائمًا ، ثم تأمّل دقّة التّعبير القرآنيّ وثراء معانيه وغناء دلالاته، فقد لمز- وهو يُمثِّل موقف (عباد الرَّحمن) ليُجلِّي مدحهم ويُؤكّده – الإسراف والتّقتير وحقَّرهما في قوله"ذلك"؛ إذ هي من وضع الظّاهر موضع المضمر؛ فكان مقتضى الظّاهر أن يقول :"وكان بينهما"

بالضّمير لتقدُّم المرجع، لكنّ النّظم الجليل عدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لغرض يقصد إليه، وهو تمييز الإسراف والتّقتير وإبرازهما؛ ليتجلَّى بينهما عَدْل (عباد الرَّحمن)، وفي ذلك إشعارٌ بمدحهم وغمزٌ بمَنْ أبوا السُّجود للرَّحمن ؛ إذ إسرافهم وتقتيرهم كأنّهما محسوسان واضحان وظاهران، يتوسطهما قَصْدُ (عبادِ الرَّحمنِ)، وإيثار التّعبير القرآني لاسم الإشارة الموضوع للبعيد على القريب الذي يقتضيه الظّاهر، للدّلالة على حقارة صفتيْ الإسراف والإقتار، فقد دلّت الإشارة بالبعيد "ذلك" على حقارة الصّفتين وحرمانهما من ساحة القُرْب وشرف الحضور، وهذا نظير ذلك قوله تعالى:" ﴿أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۞فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ اليَتِيمَ ﴾[1]

وجاء قوله (تعالى) "قواماً"، والقَوَام بفتح القاف : العَدْل والقَصْد بين الطّرفين، سُمِّي بذلك لاستقامة الطّرفين واعتدالهما . كما سُمِّي سواء لاستوائهما [2] ، وهو حال مؤكّدة لمعنى "بَيْنَ ذلِكَ". وفيه إِشْعَارٌ بمَدْح ما بَيْنَ ذَلِكَ بِأَنَّه الصَّواب الَّذي لا عِوَجَ فيه. ويجوز أَنْ يكون "قَواماً" خَبَرَ كان و"بَيْنَ ذلك" ظَرْفًا مُتَعَلِّقًا به.ويجوز أن يكون(قواماً) خبرًا ثانياً، والأوّل قوله "بين ذلك"، وهو أيضًا للتوكيد.

وعلى كُلّ هذه الاحتمالات يكون اسم "كان" ضميرًا عائدًا على الإنفاق، وقيل إنّ قوله :"بين ذلك" اسم كان، لكنّه مبنيٌّ لإضافته إلى

([1])سورة الماعون:١-٢.

([2]) اللِّسان مادة قوم، ويُرَاجع: الكشّاف ج٣ ص٢٩٩، والبيضاوي ج ٤ ص ٢٢٧، وفتوح الغيب ج٧ص٥١٠، وروح المعاني ج١٩ ص٤٦ ، والتّحرير والتّنوير ج ١٩ص٧١.

غير متمكنٍ، ونُسِب هذا القولُ إلى الفرّاء، وعقّب عليه الزَّمخشري بقوله :"وهو من جهة الإعراب لا بأس به ، ولكنّ المعنى ليس بقويّ : لأنّ ما بين الإسراف والتّقتير قوام لا محالة ، فليس في الخبر الذي هو معتمد الفائدة فائدة".[1] كما ذكر البيضاوي أنّه ضعيف؛ لأنّه بمعنى القوام فيكون كالإخبار بالشّيء عن نفسه "[2]

وقرئ"قِوامًا" بالكسر، وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص[3] ، وعلى هذه القراءة يكون قوله "قِوامًا" مُحدّدًا لما "بين ذلك" بأنّه ما تقوم به الحاجة.

وتحديد ما تقوم به الحاجةُ يكون بناءً على مراعاة الأحوال الغالبة في إنفاق النّاس ، ولهذا ذكر ابن عطية، والقرطبي، وابن عاشور أنّ القِوَام في كُلِّ واحدٍ بحسب عياله وحاله وخِفْةِ ظَهْره وصَبْره وجَلَده على الكسب، ولهذا ترك رسول الله(ﷺ) أبا بكر يتصدَّق بجميع ماله ومنع غيره من ذلك. [4]

---

(1) الكشّاف ج٣ص ٢٩٩.

(2) البيضاوي ج٤ص ٢٢٧ .

(3) المصدر السّابق، الموطن نفسه.

(4) يُرَاجع: المحرَّر الوجيز ج ٤ ص٢٢٠ ، و تفسيرالقُرْطبي ج١٣ ص٧٢ ، والتّحرير والتّنوير ج ١٩ص٧١.

الصِّفات: السَّادسة والسَّابعة والثّامنة:

التَّنَزُّهُ عَنِ الشِّرْكِ، وقَتْلِ النَّفْسِ، والزِّنَا.

و قد تضمّن هذه الصّفات الثّلاث قوله (تعالى) في الخبر الخامس:﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَل ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً۞ يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً۞ إِلا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[1]

وهذه الصّفات الثّلاث هي من قوام الإيمان، وهي من قِسْم التخلِّي عن المفاسد والقبائح التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، وقد مدحهم الحقُّ(جلّ وعلا) بتنزُّههم عنها بسبب إيمانهم، وفي نفي الشِّرك عنهم- مع أنّ عنوانهم (عباد الرَّحمن) يُوحي بإيمانهم- إيماءٌ إلى قيمة التّوحيد وإخلاص العبادة لله (سبحانه)، وفي المجيء بالقتل والزّنا بعد الشّرك تهويلٌ و تفظيعٌ من شأنهما، وإيحاءٌ بأنّ الصّفات الثّلاث من واد واحد.

و الذي ينظر إلى هذه الآيات نظرةً عَجْلَى، يبدو له أنهّا جاءت لتُبيّن اجتنابهم المعاصي، بعد بيان إتيانهم الطّاعات، لكنّ الذي ينظر إليها وعينه على سياق السُّورة المباركة، يتأكّد له مقصدٌ آخر أصيلٌ من مقاصد النّظم الجليل؛ إذ يبدو له أنّ المراد من نفي هذه القبائح

([1]) سورة الفُرْقان:٦٨-٧١.

العظيمة هو التّعريض بما كان عليه الكافرون من أهل الجاهلية؛ إذ كانت هذه الصّفات من خِلالهم، فكأنّه قيل:والّذين طهَّرهم الله (تعالى) وبرّأهم ممّا أنتم عليه من الإشراك وقتل النّفس المحرمة والزّنا.

ولو لم يكن التّعريض مقصداً أساسيًا للنّظم الجليل لما كانت هناك حاجة إلى نفي هذه الأوصاف عن (عباد الرّحمن) بعد وصفهم بالصّفات السّابقة من حسن المعاملة، وإحياء الليل بالصّلاة، ومزيد خوفهم من الله(تعالى) ؛ لظهور استدعائها نفي ما ذكر عنهم، ومن هنا يتجلَّى لنا ضعف ما قيل: الظّاهر عكس هذا التّرتيب وتقديم التّخلية على التّحلية.[1]

ولذا فهذه الصّفات واقعةٌ في موقعها ومرتبطةٌ بسياقها غاية الارتباط، وإذا ما تجاوزنا ذلك إلى كيفية بناء هذه الآيات وجدنا ما هو أبدع وأمتع، وإن شئت قل ما هو معجزٌ، وأول ما يلفت النَظر، هو جمع التخلّي عن هذه الجرائم الثّلاث في صلة موصولٍ واحد، دون أن يُكرّر اسمُ الموصول، كما صنع في الصّفتين : الأُولى، والثّانية، في قوله (تعالى):﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾[2]، وإذا كان هناك قد جمع بين الصّفتين في صلة موصولٍ واحد؛ للإيحاء بأنّهما كالصّفة الواحدة، وذلك لشدّة المناسبة بينهما، فإنّه قد جمع هنا بين التّنزُّه عن هذه الجرائم الثّلاث في صلة موصولٍ واحدٍ؛ للإشارة إلى أنّها من وادٍ واحدٍ، وللتّنبيه على

([1])يُرَاجع: الكشَّاف ج ٣ص٣٠٠ ، و تفسير أبي السُّعود ج ٦ ص٢٣٠، وروح المعاني ج ١٩ ص٤٧ .

([2])سورة الفُرْقان:٦٣.

أنّ الإقلاع عن الشّرك، هو إقلاع عن أشدّ القبائح لصوقًا به كالقتل والزّنا.

وذكر الطّاهر بن عاشور(رحمه الله)" أنّ تكرير(لا) قد يكون مُجْزِئًا عن إعادة اسم الموصول وكافياً في الدّلالة على أنّ كُلّ خَصْلَةٍ من هذه الخِصَالِ مُوجِبَةٌ لمضاعفة العذابِ ".[1]

ولعلّ هذا هو السّر في مجيء هذه الصّفات بالعطف على جملة الصّلة، دون أن يكرر اسم الموصول كما في بقية الآيات، ثم إنّ مجيء هذه الصّفات في جملة صلة الموصول يُوحي بأنّهم مشهورون بتنزههم عنها.

و المقصود من قوله(تعالى):" وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ" في الصّفة الأُولى ، هو نفي الشّرك عن (عباد الرّحمن)، لكن النّظم الجليل لا يُصَرّح بذلك ، ولكنّه ينفي عنهم دعاء غير الله، وذلك لأنّ دعاء غير الله مَظْهرٌ من مظاهر الشّرك، وكأنّه يقول : لا يشركون بالله بدليل أنّهم لا يَدْعُون غير الله، وذلك على سبيل الكناية، وفي ذلك غاية المدح لعباد الرّحمن ، كما أنّ فيه أيضًا إظهارًا لقيمة الدّعاء ومكانته؛ فهو من مقتضيات الأُلوهيّة ومستحقاتها؛ فمَنْ وَضَعه في غير موضعه، بدعاء من لا يستحقُّ، وقع في دائرة الشّرك بالله؛ فكما قيل:" الشِّرك ثلاثةٌ: أولها: أن يَعْبُد العبدُ غيرَ الله (تعالى). والثّاني: أن يُطيع مخلوقًا بما يأمره من المعصية. والثّالث: أن يعمل لغير وجه الله (تعالى). فالأوّل كُفْرٌ والآخران معصية" [2]، ودعاء غير الله مندرجٌ في

([1])التّحرير والتّنوير ج ١٩ ص٧٣.

([2]) تفسير السَّمرقندي ج ٢ ص٥٤٥.

النوع الأوّل؛ لأنّ "الدُّعاء مُخُّ العبادة"[1] أو هو هي.

على أنّ التّعبير بنفي دعاء غير الله عن نفي الشّرك يجوز فيه أيضًا أن يكون من باب المجاز المرسل الذي علاقته السّببية؛ لأنّ دعاء غير الله سببٌ من أسباب الشّرك -أعاذنا الله منه-.وتسمية غير الله إلهًا على زعم المشركين، من باب التّسليم للخَصْم على الفرض الجدلي بأنّه يدعو إلهًا.

وقوله (تعالى):﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ﴾ ينفى عنهم القَتْل بحالٍ من الأحوال إلا بالحقّ، ومن القَتْل غيرِ الحق، قَتْلُ النَّفْس الذي كان مُتَفَشِّيًا في العَرَب بالعَدَاوات والغَارات، والوَأْد، وفَرْط الغَيْرَة.

وقد تعدَّى فعلُ القَتْل المنفي عن (عباد الرَّحمن) إلى المفعول؛ لأنّ القتل مطلقًا غير منهي عنه؛ إذ يجوز قَتْل الحيّة والكلب العقور والعَقْرب، وكُلّ ذي أذى، وإنّما القتلُ المنهي عـــنه هو قتل ما حرّم الله. [2]

وفي وَصْف النَّفْس بالموصول في قوله "الَّتي حَرَّم اللهُ" بَيَانٌ لشُهْرَة حُرْمَة النَّفْس الَّتِي تَقَرَّرَت من عهد آدَمَ، فيما حكى اللَّه من

([1]) حديث شريف، سنن التّرمذي تحقيق أحمد محمد شاكر(ط دار إحياء التّراث العربي، بيروت، لبنان)ج٥ص٤٥٦، وبلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ج١ص٥٩٩..

([2]) دلالات التّراكيب ٣٧١.

محاورة وَلَدي آدَمَ في سورة المائدة[1] ، وقوله (عز اسمه)"حَرّم الله" أي حَرّم قتلها؛ لأنّ التّحريم إنمّا يتعلق بالأفعال دون الذّوات، فحُذف المضافُ وأُقيم المضافُ إليه مقامه، مبالغة في حُرْمة القَتْل[2]، فكأنّ الله (عزّ وجلّ) جعل النَّفْس البشرية حَرَمًا له ، فمن أرادها بأذى من قتلٍ وغيره بغير حقٍّ؛ فكأنّه يعتدي على حقّ من حقوق الله؛ لأنّه يعتدي على حَرَمه، و يُلحظ أنّ النَّفْس هنا على الإطلاق لا تتقيّد بدِينٍ، ولا عِرْقٍ ولا مَذْهبٍ ولا لَوْنٍ ، ومن ثمّ فأيُّ نفسٍ بشريّة- سواء أكانت نفسَ مسلمٍ أم ذميّ أم غير ذلك- تدخل في تحريم الله لها.

والتّعبير بلفظ الجلالة"الله" للتّعظيم المُوحي بالمبالغة في هذا التّحريم، وبتربية المهابة عند المخاطبين، فهو تحريم الله لا تحريم غيره.

و قوله " إِلاَّ بِالحَقّ " متعلقٌ بالقَتْل المحذوف في قوله"حرّم الله" أي: حرّم قتلها أو بـــ "لا يقتلون" ، والاستثناء مُفَرّغ من أعمّ الأسباب أي لا يقتلونها بسببٍ من الأسباب إلا بسبب الحقّ المُزيل لحُرْمتها وعصمتها، كالزّنا بعد الإحصان، والكفر بعد الإيمان، وقتل النّفس بالنّفس، وجُوّز أن يكون صفةً لمصدرٍ محذوفٍ أي لا يقتلونها نوعًا من القتل إلا قتلًا متلبسًا بالحقّ، وأن يكون حالًا أي لا يقتلونها في حالٍ من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحقّ"[3]

---

(1) في الآيات من٢٧إلى٣٢.

(2) يُرَاجع : تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٣٠

(3) يُرَاجع : الكشّاف ج٣ ص٣٠٠ ، وتفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٣٠ ، وروح المعاني ج١٩ص٤٧

فالحقُّ (جلَّ وعلا) في هذه الجملة قد نَفَى عن (عباد الرَّحمن) قتلَ أيّ نفسٍ نفيًا عامًا ، ثم استثنى من هذا النّفي العام القتل بالحقّ ، وهو ما يحقّ أن تُقتل به النُّفوس[1]- كما سبق بيانه-؛ فأفاد ذلك القصر، وقد آثر النّظم الجليل طريق النَّفي والاستثناء ؛ لأنّه لا يكون إلا في خطاب المنكر أو ما يُنزّل منزلته. ووصف (عباد الرّحمن) عام قد ينطبق على العامة والخاصة على حدّ سواء، وقد يتّصف به أحد الولاة، ثمّ يُنفِّذُ حدَّ القتل على المارقين عن ربقة الطّاعة، فلا يُعدُّ هذا الصّنيعُ مخرجًا له من دائرة (عباد الرَّحمن)؛ لأنّه من القتل بالحقِّ، وقد يرى بعض العامة أنّ تطبيق حدّ القتل من ولاة الأمر يتنافى مع وصف (عباد الرَّحمن)؛ فنزّلتهم الآية منزلة مَنْ يرى أنّهم يقتلون بغير الحقّ؛ فقال سبحانه:"ولا يقتلون النَّفس التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ" أيْ إنْ وقع منهم قَتْلٌ فلن يكون إلا بالحقِّ.

يُضاف إلى ذلك أيضًا أنّ بعض النّاس قد يترخّص في القَتْل تحت أيّ داعٍ، فجاء وصفُ الحقّ لعباد الرّحمن لينفيَ القَتْل عنهم تحت أيّ داعٍ إلا بالحقّ، وهذا الحقّ قد حدّدته سُنَّة النَّبي(ﷺ)في الأمور الثّلاثة السّابقة، وفي هذا مدحٌ لهم ، وتشريعٌ لغيرهم ممن أراد أن يسير على خطواتهم، ويتّصف بأوصافهم التي ارتضاها الرّحمن لهم، وأثنى عليهم بها، كما أنّ فيه تعريضًا بالكافرين الذين كانوا يرتكبون هذه الجرائم التي نفاها الله عن (عباد الرّحمن).

وقد لمح الطّاهر بن عاشورفي قوله (تعالى):"إلا بالحقّ" سرّاً آخر، "هو أنّ قوله :"إلا بالحقّ" وإن كان المراد به يومئذ قتلَ قاتل أحدهم،

([1]) فتح القدير ج ٤ص٨٨.

فإنّ فيه تهيئةً لمشروعيّة الجهاد عقبَ مدّة نزول هذه السُّورة، ولم يكن بيد المسلمين يومئذٍ سلطانٌ لإقامة القصاص والحدود"[1]، وهذا ملمحٌ جيّد.

وقوله (تعالى):"وَلا يَزْنُونَ" ينفي عنهم صفة الزّنا؛ لأنّها في الحقيقة قتلٌ داخليٌ للولد بتضييع نَسَبِه، وللمرأة بانتهاك حُرْمتها، و لأهلها بانتهاك حُرْمتهم، وهو أيضًا جارٌّ إلى القَتْل والفِتَن، و فيه التسبُّب لإيجاد نفسٍ بالباطل، كما أنّ القتل تسبَّب إلى إعدامها بذلك[2]، وهذه الصّفة من القبائح التي كانت غالبة على المشركين في الجاهليّة وملازمة لهم؛ إذ كانوا يستحلُّون الفروج المحرمة بغير نِكَاحٍ ولا مِلْك يمينٍ.

وقد جاء التّعبير القرآني بفعل الزِّنا منفيًّا دون نظرٍ إلى مَنْ وقع عليه الفعل، و حذف المُتَعلِق يفيد العموم، أي أنّ هذه الفاحشة لا تكون من (عباد الرّحمن) على الإطلاق لا في حيوان ولا في آدمي، ولا في أَمَة ولا في حُرَّة ولا في غير ذلك ، وعليه فحذف المفعول أنسب بمقام المدح.

وآثر النّظم الجليل مجيء الفعل المضارع المنفي في هذه المفاسد الثّلاث(لا يَدْعُونَ- وَلا يَقْتُلُونَ- وَلا يَزْنُونَ) ؛لأنّه يدلُّ على الحال والاستقبال، وكأنّ الحقّ (سبحانه) يُقرّر بأنهّم لا يرتكبون هذه الشّنائع الثّلاث لا في الحال ولا في الاستقبال؛ فماداموا قد دخلوا تحت

([1])التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٣.

([2])نَظْم الدُّرر ج١٣ص٤٢٦.

وصف(عباد الرَّحمن) فلن يبرحوه أبدًا؛ لأنّ الرّحمن سيحفظهم بحفظه الذي ليس بعده حفظٌ، أما ما مضى من حياتهم، فإنْ وقع منهم شيءٌ وتابوا إلى ربّهم، فإنّه سيتوب عليهم ويرضى عنهم، وفي ذلك من التفضُّل عليهم، والإكرام لهم ما فيه.

وتَكْرَار(لا) أفاد- كما حقّقه الرّضي- ورود النّفي على وقوع الخصال الثّلاث حال الاجتماع والانفراد والتّرتيب[1]، فالمعنى:لا يُوقعون شيئًا منها، فكان معنى"ومن يفعل ذلك": ومن يفعل شيئًا من ذلك. [2]

ثمّ إنّ الفعل المضارع المنفي في الجمل الثّلاث من النّسق المؤدي إلى التّلاؤم وتناسب النّغم وسهولة المخرج وعـذوبة اللّفظ وكثرة الماء. [3]

وبعد ما طهّر الله (عباد الرَّحمن) من أُمَّهات القبائح وأفظعها، جاء التّهديد والوعيد للجميع؛ حتى لا يُظَنّ أنّ نفي هذه الصّفات خاصٌّ بعباد الرَّحمن، فقال (سبحانه)- مُهدِّدًا ومُتوعِّدًا- ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ۞ يُضاعَفْ لَهُ العَذابُ يَوْمَ القِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً ﴾والواو في قوله:"ومن يفعل ذلك" واو الاستئناف التي يستأنف الكلام بها معنى جديدًا، هو بيانٌ لحال مَنْ وقع في هذا الذي لم يقع فيه (عباد الرّحمن)، وهي تعطف هذا المعنى الذي دخلت عليه بجملته على

([1])شرح الرَّضيّ على الكافية تحقيق يوسف حسن عمر (منشورات جامعة قار يونس بنغازي، ط ثانية ١٩٩٦م)ج ٤ص ٣٨٣.

([2])نَظْم الدُّرر ج١٣ص٤٢٧.

([3]) دلالات التّراكيب٣٧١.

المعنى السّابق بجملته، وهذا من عطف قصة على قصة.

والجمل التي دخلت في حيز هذا الاستئناف تتشابك تشابكًا ظاهرًا كما ترى، فجواب الشّرط مكوّنٌ من ثلاث جمل:يلق أثامًا...يُضاعف له العذابُ...ويخلد، وقد فُصلت الجملة الثّانية لأنّها تفسيرٌ للتي قبلها؛ فقوله سبحانه:" يُضاعف له العذابُ"بيان للقاء الأثام، وقوله:"ويخلد فيه" بيان أيضًا ولكنّ الواو جعلته عذابًا مستقلًا وجزاء وحده. [1]

والإشارةُ بـــ "ذلك" إلى ما ذُكِرَ من الكبائر على تأويله بالمذكور ؛ لتمييز المشار إليه أكمل تمييزٍ وتقبيحه غاية التّقبيح، قال أبو حيّان :و"يظهر أنّه إشارةٌ إلى المجموع مِنْ دعاء إلهٍ وقتل النّفس بغير حقٍّ والزّنا ، فيكون التّضعيف مرتباً على مجموع هذه المعاصي ، ولا يلزم ذلك التّضعيف على كُلّ واحدٍ منها "[2]، و من هنا فليس المراد أنّ من يفعل كُلَّ واحدةٍ ممّا ذُكِر يلقَ أثاما؛ لأنّ لُقِيَّ الأثام بُيِّن هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه، "ونهضت أدلةٌ متضافرة من الكتاب والسُّنة على أن ما عدا الكفرَ من المعاصي لا يُوجبُ الخلودَ ". [3]

وقد جاء هذا التّهديد والوعيد في أسلوب الشّرط؛ للإيحاء بالشّدّة والحسم والسُّرعة، في وقوع العقاب على من يرتكب هذه الكبائر، وذلك لأنّ جواب الشّرط مترتّب على فعل الشّرط ، فبمجرد حدوث الفعل يحدث الجواب مباشرة بدون مهلة.وقد أفادت (من) الشّرطية العموم، وفي التّنصيص على جزاء هذه المنكرات الثّلاث، مبالغة في الدّلالة على

([1]) المرجع السّابق ، الموطن نفسه.

([2]) البحر المحيط ج ٦ص٤٧٢.

([3])التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٣.

غضب الحقّ (جلّ وعلا) من مرتكبيها ومزيد اهتمام بخطرها، وذلك للتّحذير من الوقوع فيها، ويُؤكّد ذلك المجيء بالفعل المضارع الدّال على الاستمرار التّجدُّديّ في قوله:" ومن يفعل ذلك" ثمّ الإشارة للبُعْد في قوله:"ذلك"- مع قُرْب المذكورات المشار إليها-المفيد للتّناهي في القبح.

ثم التّعبير باللُّقيّ مع المصدر المزيد الدّالّ على زيادة المعنى في قوله:"يَلْقَ أثاما" دون يأثم أو يلق إثمًا أو جزاء إثمه، وذلك للإيحاء بأنّ جزاءه ينتظره، فما إنْ يفعل يَرَه، و هو ليس جزاءً واحدًا، إنمّا هو جزاءات، والنّظم الجليل بهذا يُوحي بأنّ الفاعل لهذه المنكرات، سوف يُجَازَى عَلَيها جزاءً قويًا، وذلك لِأَنَّهَا أثَامٌ ، وليست إثمًا واحدًا.

وقُرئ "يُلقّ" بضم الياء وتشديد القاف[1]، وهذه القراءة الأُخرى تُوحي أيضًا بشدّة العذاب وكثرته، فكأنّه يتدفّق عليه من اتجاهات متعددة، وهو في وَسَطه فاقدٌ لوعيه كالسّكران.

وقد آثر التّعبير القرآني التّعبير عن الجزاء بالإثم، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته السّببية؛ لأنّه "أطلق اسم الشّيء على جزائه "[2]، وكلام الزّمخشري والبيضاوي وأبي السُّعود يمكن أن يحمل على أنّه من المجاز المرسل أو حذف مضاف [3]

وأميل إلى حمله على المجاز المرسل، وذلك لأنّ الحمل عليه يُوحي

([1])فتح القدير ج ٤ص٨٨.

([2])يُرَاجع: المصدر السَّابق الموطن نفسه، والبحر المحيط ج ٦ص٤٧١.

([3])يُراجع:الكشّاف ج٣ ص٣٠٠ ، والبيضاوي ج٤ص٢٢٨، وتفسير أبي السُّعود ج٦ص٢٣٠.

بأنّ هذا الجزاء القوي قد وقع بسبب فعلهم القبيح الشّنيع، وقد أوحى بذلك كلام العلماء، "قال أبو عمرو الشَّيباني: يقال قد لقي أثام ذلك أي جزاءه، وسيبويه والخليل يذهبان إلى ذلك.[1]، ونسبه الثَّعلبي إلى ابن عبَّاس[2]

كما يمكن أن يُحمل قوله"أثاما" على الحقيقة، ويكون المعنى :من يفعل شيئًا من ذلك يجده في الآخرة، وفي ذلك من التّنفير لهم من هذه الأفعال ما فيه، و فيه –أيضًا– إظهارٌ لعدل الله (سبحانه)؛ إذ يُجلِّي لكُلّ عبدٍ ما صنع في الدّنيا حتى يقتنع بجزائه، كما أنّ فيه تعريضًا بالكافرين الّذين يرتكبون هذه الأفعال؛ بأنّ أفعالهم ستمثُل بين ناظريهم في الآخرة، وسوف يُفضحون بين الأشهاد ويُحاسبون عليها، وفي هذا من التّهديد والوعيد لهم ما فيه.

على أنّ التّنوين في قوله" أثامًا" يُشارك هو الآخر في تصوير شدّة هذا الجزاء المُنْتَظِر لهم؛ إذ هو للتّفخيم والتّهويل[3] والتّكثير، فكأنّه يُوحي بأنّه عقابٌ مُروِّعٌ، وجزاءٌ لا نهاية له .

و تقييد جواب الشّرط بمضاعفة العذاب والخلود فيه في قوله (عزّ اسمه):"يُضاعفْ له العذابُ يوم القيامة ويَخلدْ فيه مُهانًا" لزيادة التّقرير والإيضاح؛ وذلك أنّ مضاعفة العذاب هي لُقيّ الأثام ، فهو كقولك: إن

([1]) زاد المسير ج ٦ ص ١٠٥.

([2])يُرَاجع: تفسير الثَّعلبي ج٧ ص١٤٨.

([3])تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٣٠.

تأتني أُحْسِن إليك ، أُعْطِك بُغْيتك[1] .وهذا على طريق البدل- إذ قد أُبدل (يضاعف) و(يخلد) من (يلق)، بدل كلّ من كلّ- لاتحادهما في المعنى- أو بدل اشتمال[2].

وتقييد الخلود بالحال (مُهانًا) [3] وهو اسمُ مفعولٍ. مِنْ أَهانه يُهِيْنُه أي: أذلَّه وأَذاقه الهوان؛ أضاف إلى العذاب الجسماني العذاب الرُّوحي؛ لأنّه يُوحي بأنّ هذا العاصي يُلَقّ بهذا العذاب الشّديد، وهو مُسْتَحْقَرٌ ذليلٌ؛ فيجمع بين العذابين ، ولعلّ في هذا ما يكشف لنا وجهًا من وجوه مضاعفة العذاب ويُؤكِّدها.

و بمعاودة النّظر في بناء هاتين الجملتين الكاشفتين عن شدّة العذاب وحالة المُعَذَّب، نجد أنّه قد تعدّدت فيهما القراءات، و لكلّ قراءةٍ وجهٌ من البلاغة يختلف في مذاقه عن غيره وإن لم يَقِل عنه، بيان ذلك أنّ قوله تعالى:"يضاعف" و"يخلد" قد قرئ بجزمهما ورفعهما، وفي قراءة "يضعّف" بالتّشديد، وقرأ طلحة بن سليمان "وتَخْلُدُ " بتاء الخطاب

---

(1) يُرَاجع: الكتاب لسيبويه ج٣ص٨٧، والتّنبيه على شرح مُشْكِل أبيات الحماسة لابن جني تحقيق د سيدة حامد عبد العال ود تغريد حسن أحمد عبد العاطي مراجعة حسين نصار (ط دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التّراث، ٢٠١٠م)ص ١٨،ص٦٠.

(2)المفصّل في صنعة الإعراب لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري،تحقيق د.علي بو ملحم (مكتبة الهلال ، بيروت ، ط أولى ١٩٩٣م) ج١ص٣٣٦. ويُرَاجع:روح المعاني ج١٩ ص ٤٨.

(3) الجلالين ج١ ص ٤٧٨.

مرفوعًا، وقرأ أبو حيوة (وتُخَلَّدْ) مبنيًا للمفعول مشدّد اللّام مجزومًا، ورُويت عن أبي عمرو وعنه كذلك مخففًا(تُخْلَدْ). [1]

فأمَّا قراءة "يُضَاعَفْ" و"يَخْلُدْ" بالجزم فعلى أنهّما بدلُ كلٍّ من كُلّ- لاتحادهما في المعنى- أو بدل اشتمال، وقد ذكرتُ أنّ البدل هو المقصود بالحكم، وهو لزيادة التّوضيح والتّقرير لما جاء في المبدل منه، وهو قوله (تعالى) (يلق).

وأمَّا القراءة برفعهما فعلى الاستئناف أو الحال، فإنْ حملْتَهما على الاستئناف كانتا جوابًا لسؤالٍ مُقدَّر[2]؛ فكأنّ سائلًا سأل حينما قال الحقُّ (جلّ وعلا) :"ومن يفعل ذلك يلق آثاما" ما الذي سيُفعل به؟!! فقال الله (تعالى):"يُضاعفُ له العذابُ يوم القيامة ويخلدُ فيه مُهانًا" فكشف الأمر وبيّنه وزاده توكيدًا، وقد فُصِلت هاتان الجملتان عن جملة" ومن يفعل ذلك يلق آثاما" كما يُفْصَل الجواب عن السُّؤال، لشبه كمال الاتصال بينهما.

وإنْ حملْتهما على الحال يكون الفعل (يلق) – وهو جواب الشّرط – مقيدًا بالحال من فاعل (يلق)، والمعنى يلق آثاما مضاعفًا له العذاب خالدًا فيه، وقد أوحى التّقييد بالحال بشدّة الجزاء وقوته.

وأمَّا قراءة(يُضَعَّف) بالتّشديد، فهي تُوحي بقوة الجزاء وشدّته؛ لأنّ زيادة المبنى –كما يقولون- تدلّ على زيادة المعنى، كما تشي هذه

([1]) تُرَاجع هذه القراءات في: الكشّاف ج٣ ص٣٠٠ ، و تفسير القُرْطبي ج١٣ص ٧٥، وروح المعاني ج١٩ص٤٧

([2])زاد المسير ج٦ ص١٠٥.

القراءة بالمبالغة في الغضب والحُنْق على من يرتكب جريمة من هذه الجرائم التي نفاها السّياق المبارك عن (عباد الرّحمن).

وإذا كان التّشديد في هذه القراءة يُوحي بشدّة الجزاء، فإنّ المدّ في صيغة المفاعلة(يضاعف) هو الآخر يُوحي بذلك وربّما يزيد، ومن ثمّ فإنّ القراءتين قد اتفقتا على المبالغة في قوة الجزاء ، ولكن اختلف مصدر هذه المبالغة ومنبعها في هذه القراءة عن تلك.

وأمَّا قراءة (وتَخْلُدُ) بتاء الخطاب مرفوعًا، فهي على الالتفات المُنْبِئ عن شدَّة الغضب والحُنْق ؛ فقد بدأ السِّياق بطريق الغيبة للتّهديد والوعيد، وانثنى إلى الخطاب؛ ليبالغ في التّهديد والوعيد وشدّة الغضب مواجهةً.

وأمَّا قراءة(وتُخَلَّدْ) بالتّاء والتّشديد والجزم، فقد أضافت إلى الالتفات التّشديد، وهو يُوحي بالمبالغة في الغضب.وقريبٌ من هذه القراءة قراءة(وتُخْلَد) بدون تشديد، لكنّها لا تفيد المبالغة المشار إليها.

وبناءً على ذلك فعندي في قوله:"ويخلد" أربع قراءات، هي:١- (ويَخْلُد) بالياء والجزم أو الرفع ٢- (وتَخْلُدُ) بتاء الخطاب مرفوعًا٣- (وتُخَلَّدْ) بالتّاء والتّشديد والجزم مبنيًا للمفعول. ٤- (وتُخْلَد) بالتّاء بدون تشديد مبنيًا للمفعول.ومن الملاحظ على هذه القراءات أنّ القراءتين: الأُولى والثّانية مَبنيّتان للفاعل، والقراءتان: الثّالثة والرّابعة مَبنيّتان للمفعول، وهذا فرقٌ آخر بين هذه القراءات يُضاف إلى ما تميّزت به كُلّ قراءة عن الأخرى، وهو يُوحي فيما أُسند للفاعل أنّ من يفعل أيّ جريمة فهو الذي سيُخلّد نفسه في نار جهنّم، وهذا على المجاز العقلي الذي علاقته السّببية؛ حيث أُسند الفعلُ إلى السّبب، وهو

مَنْ فعل الجريمة؛ لأنّ الفاعل الحقيقيّ لخلودهم هو الله (جلّ وعلا) ، وفي هذا إظهارٌ لسببية خلودهم في جهنّم، وفيما أُسند للمفعول يُوحي بقوّة الله(سبحانه وتعالى)وعظمته؛ فقد بُني الفعل على ما لم يُسمّ فاعله للعلم بالفاعل، وهو الله (تعالى)؛إذ لا فاعل لهذا غيره؛ ليُوحيَ بغضب الله ممن يفعل شيئًا من هذه الجرائم، وفي هذا تهديد ووعيد لهم.

و قوله (عزّ اسمه):"يُضاعفْ لَهُ العذابُ يَوْمَ القيامةِ ويَخلدْ فيه مُهانًا" ، قد تقدم الجار والمجرور(له) على قوله (العذاب)، والأصل:يُضاعف العذاب له؛ فتقدم الجار والمجرور على نائب الفاعل، والأصل تأخره ، وقد أفاد هذا التّقديم القصر، أي قصر مضاعفة العذاب على من فعل هذه الجرائم دون غيره، وذلك لأنّه ارتكب ثلاثًا من الكبائر،هي:الشرك والقتل، والزنا، وفي ذلك من التّشنيع عليه والتّشهير به ما فيه؛ إذ هو وحده المستحق لهذه العقوبة المُنْبِئة عن شدّة الغضب.

ومن المعروف أنّ هذا العذاب لا يكون إلا في يوم القيامة، لكن النّظم الكريم قد نصّ عليه، وذلك للتّأكيد عليه، والتّهويل منه، والتّشهير بهم، ففي هذا اليوم الذي يتمنَّى فيه كُلُّ إنسانٍ أن يُخفَّف عنه؛ لما فيه من شدّة، سوف يُضاعف لهذا الصنف من العصاة العذاب.

و تقديم الجار والمجرور(فيه) على قوله(مهانًا)، والأصل تأخُّره، أي مهانًا فيه، يفيد القصر، أي أنّ خلودهم مقيدًا بالإهانة سيكون في هذا العذاب لا في مكان آخر، وهذا يُوحي بالمبالغة في شدّة العذاب؛ لأنّ إهانتهم وتحقيرهم وإذلالهم سيتحقَّق لهم وهم في غمرة العذاب،

فيُجمع لهم بين عذابين: جسماني وروحي، وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ لمن ارتكاب هذه الجرائم- مجتمعة أو منفردة-.

وتُوحي جملة القصر بأنّ بعض عصاة هذه الأُمّة- الذين يريد الله تعذيبهم- سينجُون ويدخلون الجنَّة، فتكون إقامتهم- مع العلم بالمآل- ليست على وجه الإهانة [1]

بقي في هذه الجملة التي تقطر تهديدًا ووعيدًا مسألةٌ وقف عندها المفسرون، هي: معنى مضاعفة العذاب، وفهم هذا المعنى في ضوء آيات أخرى تنصُّ على مساواة الجزاء للعمل.

أمَّا عن المعنى فقد تعدّدت أقوال المفسرين في تحديده؛ فقال الزّمخشريُّ:" فإنْ قُلْتَ : ما معنى مضاعفة العذاب ... ؟ قُلْتُ : إذا ارتكب المشرك معاصي مع الشّرك عُذّب على الشّرك وعلى المعاصي جميعاً ، فتضاعف العقوبة لمضاعفة المُعاقَب عليه". [2] و إلى هذا ذهب البيضاوي وأبو السُّعود [3]

و قال البقاعي :"ومضاعفة العذاب- والله أعلم- هو إتيان بعضه في أثر بعض بلا انقطاع كما كان يُضاعف سيئته كذلك[4]، وقال الطّاهر

([1]) يُراجع:نَظْم الدُّرر ج١٣ص٤٢٧.

([2]) الكشّاف ج٣ص٣٠٠.

([3]) البيضاوي ج٤ص٢٢٨ وأبو السُّعود ج ٦ص ٢٣٠.

([4]) نَظْم الدُّرر ج١٣ص٤٢٧.

بن عاشور" ويجوز أَنْ تكون مُضَاعفة العذاب مُستعملةً في معنى قُوَّتِه، أَيْ يُعَذَّب عَذَابًا شَدِيدًا وليست لتكرير عذَابٍ مُقَدَّرٍ".[1]

فالمعنى يدور كما نرى في هذه الأقوال بين التّكرير، والمتابعة، والقوّة، وسواء أكان المقصود بالمضاعفة التّكرير أم غيره فإنّ شدة هذا العذاب لا يُختلف عليها، فإن قيل:كيف نفهم مضاعفة العذاب في هذه الآية مع قوله (تعالى) في آية أخرى:﴿ مَن جَآءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2]، وقوله (سبحانه):﴿ وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[3] ، وهل يوجد تعارض؟

فقد أجاب عن ذلك الإمام الشّعراوي(رحمه الله) بأنّه لا يُوجد تناقض بين هذه الآيات ؛ لأنّ الذي يرتكب هذه الفِعْلة يكون أسوة في المجتمع تُجرِّئ غيره على ارتكاب هذه الجريمة؛ لذلك عليه وزْرها باعتباره فاعلاً أولاً، وعليه وِزْر مَنِ اقتدى به.كما جاء في قوله (تعالى) حكايةً عن الكافرين:﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ آبَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[4]، إذن: فوجود الآباء كقدوة للشّر يزيد من شرِّ الأبناء، فكأنهم شركاء فيه؛ لذلك يقول الله (تعالى) في موضع آخر:﴿ لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ

([1]) التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٧٤.

([2])سورة الأنعام:١٦٠.

([3]) سورة الشُّورى:٤٠.

([4])سورة الزُّخرف:٢٣.

عِلْمٍ ﴾[1]، وقال:﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] ، فالوِزْر الأوّل لضلالهم في ذاته، والوِزْر الآخر؛ لأنهم أضلّوا غيرهم، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب. [3]

ولمّا أتمّ الحقُّ (جَلّ وعلا) تهديدَ الفُجّار على ارتكاب هذه الكبائر، أَتْبَعَه التّرغيب في الإقبال عليه؛ فقال (سبحانه):﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [4]

فاستثنى من العموم الذي أفادته (مَنْ) الشَّرْطِيّة في قوله:" وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ " مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً"، و الإفراد في الأفعال الثّلاثة باعتبار لفظه، أما المعنى فهو جمعٌ، أي أولئك الموصوفون بالتّوبة والإيمان والعمل الصالح[5]، و للعلماء في هذا الاستثناء قولان:

أحدهما : أنّه متصلٌ ، وهو قول الجمهور، وَالتَّقْدِيرُ عليه: إِلا مَنْ تَابَ... فَلا يُضاعَف له العذابُ ولا يَخْلُدُ فِيهِ، وَالمعْنَى: أَنَّه يُعْفَى عنه مِنْ عذابِ الذُّنُوب الَّتِي تَاب منها، وَلا يَخْطُر بالبَالِ أَنَّه يُعَذّبُ عَذَابًا غيرَ مُضاعفٍ وغيرَ مُخَلَّدٍ فيه، لأنّ ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربيّ

([1])سورة النّحل:٢٥.

([2])سورة العنكبوت:١٣.

([3]) تفسير الشعراوي ج١٩ ص٢٨٩٥.

([4]) سورة الفُرْقان/٧٠.

([5]) أبو السُّعود ج ٦ص٢٣٠.

بل الأصلُ في ارتفاع الشَّيء المُقيَّد أنْ يُقْصدَ منه رفعُهُ بأسره لا رفعُ قُيُودِهِ إلا بقرينةٍ. [1]

والآخر: أنّه منقطعٌ، وإليه مال أبو حيَّان، وذكر أنّه لا يظهر الاتِّصال؛ لأنّ المستثنى منه محكومٌ عليه بأنّه يُضاعفُ له العذابُ؛ فيصير التّقدير إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا؛ فلا يُضاعف له العذابُ، ولا يلزم من انتفاء التّضعيف انتفاء العذاب غَيْر المُضَعّف، ثمّ ذكر أنّ الأَوْلى عنده أن يكون استثناءً منقطعاً، أي: لكن من تاب وآمن وعمل صالحًا" فَأُوْلَئِكَ يُبَدّلُ اللَّهُ سَيّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ "، وإذا كان كذلك فلا يلقى عذاباً ألبتة. [2]

وأميل إلى حمله على الاتصال من الجنس ؛ لأنّه-فضلًا عن كونه قول الجمهور- ؛ يُوحي بفضل الله ورحمته بعباده، كما يفيد – وهو ما ذكره الطّاهر بن عاشور(رحمه الله)- التَّطمين لنفوس فريقٍ من المؤمنين الذين قد كانوا تلبسوا بخصال أهل الشّرك، ثمّ تابوا عنها بسبب توبتهم من الشّرك، وجاء في أسباب النزول ما يُؤيّد هذا، ففي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رضي الله عنهما):« أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ قَتَلُوا فَأَكْثَرُوا، وَزَنَوْا فَأَكْثَرُوا، ثُمَّ أَتَوْا مُحَمَّدًا (صلى الله عليه وسلم) فَقَالُوا إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو لَحَسَنٌ، وَلَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً؛ فَنَزَلَ ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ

([1])يُرَاجع :التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٧٥.

([2]) يُرَاجع: البحر المحيط ج ٦ص٤٧١.

الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ ونَزَلَ ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾.[1]

وعقّب السَّمين الحلبيّ–بعد ميله إلى قول الجمهور– على قول أبي حيّان بقوله :" المقصودُ الإخبارُ بأنَّ مَنْ فعل كذا فإنّه يَحُلُّ به ما ذَكَرَ إلاَّ أَنْ يتوبَ، وأمَّا إصابةُ أصل العذابِ وعدُمها فلا تَعرُّضَ في الآية له". [2]

وقد عبّر النّظم الكريم عن المستثنى باسم الموصول" مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً"؛ لتشويق السّامع إلى الخبر؛ حتى يتمكّن في ذهنه أفضل تمكُّن، ولك أن تقول للإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأنّه من نوع الفوز والفلاح، وكما يقولون: العلل البلاغية لا تتزاحم.

وبالتّأمّل في جملة الصّلة وما جاء فيها شرطًا لهذا الاستثناء ؛ يتّضح لنا أنّه قد جاء فيها ثلاثة أمورٍ، لا يتحقَّق هذا الاستثناء وما ترتَّب عليه إلا بها، هي: التّوبة، والإيمان، والعمل الصّالح.

و ترتيب هذه الأمور الثّلاثة ، فيه من الحكمة ما فيه ، فقد بُدئ بالتَّوبة؛ لأنّها الأساس لهذا الاستثناء والممهِّدة له؛ إذ هي تعني الإقلاع عن الذَّنب، والنَّدم على الوقوع فيه، والعَزم على عدم العودة إليه مرّةً أُخرى، وبدون كُلّ هذا لا يتحقّق هذا الاستثناء، وقد عُطِف عليها الإيمانُ للتّنويه به؛ لأنّه يُوجِبُ عدمَ المؤاخذة على ما اقترفه المشركُ

([1]) صحيح مُسْلِم(دار الجيل ودار الآفاق، بيروت) ج ١ص٧٩، ويُراجع: التّحرير والتّنوير ج١٩ص ٧٥.

([2])الدّر المصون في علم الكتاب المكنون للسّمين الحلبي(نسخ وتنسيق مكتبة مشكاة الإسلامية، موقع المكتبة الشاملة) ج١١ ص١٨٦.

في مدَّة شركه كَمَا فِي قول النّبيّ(ﷺ) "...فَإِنَّ الإِسْلامَ يَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَإِنَّ الهِجْرَةَ تَجُبُّ مَا كَانَ قَبْلَهَا "[1]، وَلِيُبْنَى عَلَيْهِ قَوْلُهُ:"وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً"؛ وَفي هذا حثٌّ وحضٌّ على الأعمال الصّالحة، كما أنَّ فيه إِيمَاءً إِلَى أَنَّ هذه الأعمال لا يُعْتَدُّ بِهَا إِلا مَعَ الإِيمَانِ؛ لأنّه الأساس في قبولها، وهذا ما أكّده الحقُّ (سبحانه) في كتابه الكريم أكثر من مرّة؛ إذ نرى الذّكر الحكيم في جانب المؤمنين يشترط الإيمان مع الأعمال الصّالحة، كما يجعله الأساس في قبول الأعمال مع الكافرين فقَالَ (تَعَالَى) فِي سُورَةِ البَلَدِ ﴿فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ ۞ وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۞يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ۞ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ۞ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ﴾[2]، وَقَالَ فِي شأن أعمال الكافرين﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾[3].

على أنّ شرط الإيمان في الكافر ظاهرٌ وواضحٌ، لكنّه في المسلم العاصي يَدِقُّ ويحتاج إلى توجيه، وفهمي لذلك أنّ المسلم حينما يرتكب الشّرك أو القتل أو الزّنا، يُولّي عنه الإيمان، ولذا فعندما يريد التّوبة يُجدّد هذا الإيمان، وقد أشار إلى هذا المعنى ما روي عن ابن عباس، و ابن عمر، وأبي هريرة(رضي الله عنهم) :عن النّبي(ﷺ)قال: " لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها

([1]) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاصي (رضي الله عنه) تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين ج٢٩ ص٣١٥.

([2]) سورة البلد/١١-١٧.

([3]) سورة النّور/٣٩.

وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبةً ذات شرَف وهو مؤمن " [1].

ومن ثمّ فمعنى قوله (تعالى):" وآمن" أي أوجد الأساس الذي لا يثبت عملٌ بدونه، وهو الإيمان ، أو أكّد وجوده". [2]

وذكر الموصوف في قَوْلُهُ:"وَعَمِلَ عَمَلًا صالِحاً"مع جريان الصّالح والصّالحات مجرى الاسم للاعتناء والتّنصيص على مغايرته للأعمال السّابقة"[3]، كما أنّ فيه تأكيد الحثّ على عمل الصّالحات المؤسسة على الإيمان.

وقد فرّع الحقُّ (سبحانه) على هذا الاستثناء قوله:"فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً"[4]، وهو كلامٌ مسوقٌ لبيان فضل التّوبة المذكورة؛ إذ يُقرّرُ اللهُ (تعالى) فيه أنّه-بفضله وكرمه ورحمته- سيُبَدِّلُ سيئات التّائبين إليه حسناتٍ، و"هذا التّبديل يكون له أثرٌ في الآخرة؛ بأنْ يُعوِّضَهم عن جزاء السّيئات ثوابَ حسناتٍ أضدادِ تلك السّيئات، وهذا لفضلِ الإيمان بالنّسبة للشّرك ولفضلِ التّوبة بالنّسبة للآثام الصّادرة من المسلمين"[5]

([1]) رواه الطّبراني في المعجم الكبير تحقيق حمدي عبد المجيد السّلفي(مكتبة العلوم والحكم، الموصل، العراق، ط ثانية ١٤٠٤هـ =١٩٨٣م)ج١٢ ص٣٤٦.

([2]) نَظْم الدُّرر ج١٣ص ٤٣٠..

([3]) تفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣٠.

([4]) سورة الفُرْقان/٧٠.

([5])التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٧.

والفاء في قوله (تعالى) "فأولئك"، رابطةٌ لما في الموصول من رائحة الشّرط[1] الذي يربط الجزاء بالفعل، ويسببه عنه، كما تُوحي بالسُّرعة ، والمجيء باسم الإشارة "أُوْلَئِكَ" " يُوحي بأنّهم أحرياء بما أَخبر عنهم به بعد اسم الإشارة، لأجل ما ذكر من الأوصاف قبله ، كما يُوحي بتعظيم شأنهم ورفعة قدرهم؛ فكأنّ النّظم الجليل يقول: "فأولئك التّائبون المؤمنون العاملون الصّالحات في الإيمان يُبدِّل اللهُ عقاب سيئاتهم التي اقترفوها من الشّرك والقتل والزّنا بثوابٍ ، ولم تتعرّض الآية لمقدار الثّواب وهو مَوْكُولٌ إِلَى فَضْلِ اللَّه"[2] لكنّ سياق النّظم الكريم يُوحي بأنّه جزاءٌ عظيمٌ؛ لأنّ جزاء سيئاتهم قد بدّله الله بحسناتٍ بسبب التّوبة والإيمان والعمل الصّالح، ومن المسلم به أنّ العقاب على هذه السّيئات عقابٌ عظيمٌ؛ لأنّه جزاء جرائم قبيحة وشنيعة(الشّرك، والقتل، والزّنا)، وإذا تفضّل الكريم سبحانه بتبديل هذا العقاب العظيم بحسناتٍ، فلابد أن تكون هذه الحسناتُ عظيمةً، والطّباق بين سيئاتهم وحسنات، يُوحي بعظمة الحسنات المبدَّلة من سيئاتهم؛ لأنّ الضّدَّ- كما يقولون- يُظهر حُسْنَه الضّدُّ، كما أنّه من جانب آخر يُظهر المفارقة بين المستبدل والمستبدل به.

والتّبديل: "هو جعل الشّيء بدلًا عن شيءٍ آخر، وقد يكون لمطلق التّغيير وإن لم يأت ببدله"[3]، وهو هنا بجعل الحسنات مكان السَّيئات،

([1])إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدّين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ) دار الإرشاد للشّئون الجامعية ، حمص ، سورية ، دار اليمامة ، دمشق ، بيروت ، دار ابن كثير، دمشق ، بيروت ط. الرّابعة، ١٤١٥ هـ)ج٧ ص٤٥.

([2])التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٧.

([3])مفردات غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني ص٣٩.

وهو حقيقةٌ، لكنّ العلماء اختلفوا في زمن وقوعه، وفي المراد من السَّيئات والحسنات على قولين[1]:

الأَوّل: أنّ هذا التّبديل الذي وعد الله به يكون في الدُّنيا، و المراد من السّيئات والحسنات حقيقتهما، و المعنى أنّ الله (سبحانه) يمحو سوابقَ معاصيهم بالتّوبة، ويُثبت مكانها لواحقَ طاعتهم، وذلك بأنْ يجعل مكانَ الشّرك الإيمانَ، ومكانَ القَتْل الكفَّ، ومكانَ الزّنا العفافَ، ومكانَ المعصية الطّاعةَ، وقد أشار إلى ذلك كلامُ كثيرٍ من السّلف.

وقيل المراد بالسّيئات والحسنات ملكتهما، وذلك بأن يُبدِّل الله (سبحانه) بملكة المعصية ودواعيها في النّفس ملكة الطّاعة بأن يُزيل الأُولى ويأتي بالثّانية، وقيل بأن يُوفِّقه لأضداد ما سلف منه ، وهذا من التّعبير بالمسبب عن السّبب؛ لأنّ السّيئات والحسنات مسببتان عن الملكة أو التّوفيق.

والآخر: أنّه يكون في الآخرة، والله (تعالى) يُبدِّل سيئات التّائب بالحسنات في صحيفته، ونُسِبَ إلى سعيد ابن المسيَّب وجماعة، والمراد بالسّيئات والحسنات العقاب والثّواب مجازًا من باب إطلاق السّبب وإرادة المسبب، وذلك بأن يُثبت له بدل كُلّ عقابٍ ثوابًا، وقيل يُبدِّلهم بالشّرك إيمانًا، وبقتل المسلمين قتل المشركين، وبالزّنا عفةً وإحصانًا [2]

([1]) يُرَاجع: جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (دار المعرفة، بيروت، ط أولى، ١٤٠٨هـ)ج١ص١١٧.

([2]) يُرَاجع: تفسير السَّمعاني ج٤ص٣٤، و الكشَّاف ج٣ ص٣٠٠، وتفسيرالبيضاوي ج٤ ص٢٢٨، وتفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣٠، وروح المعاني ج١٩ص ٥٠ ،

وقد ورد في القول الآخر خبرٌ صحيحٌ عن أبي ذرٍّ عن النّبيّ(ﷺ) قال:" يُؤْتَى بالرّجلِ يوم القيامة، فيُقَال: اعْرِضُوا عليه صِغَارَ ذنوبه، قال فتُعْرَض عليه ويُخَبَّأ عنه كِبَارُها، فيُقَال عَمِلْت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وهو مُقِرٌّ لا يُنْكر، وهو مُشْفِقٌ من الكبائر، فيُقَال: : أعْطُوه مكان كُلّ سيئةٍ عَمِلَها حَسنةً، قال: فيقول : إنّ لي ذنوبًا ما أَراها هَا هُنَا" قال أبو ذرّ: فلقد رأيتُ رسول الله (ﷺ) ضَحِكَ حتى بدت نواجذه "[1] ،وزاد أبو عوانة :ثم تــلا رسول الله (ﷺ):" فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ". [2]

وقد أنكر جماعةٌ من المتقدِّمين أن تنقلب السّيئةُ حسنةً ؛ منهم الحسن البصري وغيره ، وإذا ثبت الخــبر عن النّبيّ لم يبق لأحدٍ كلامٌ.. [3]

وأرى أنّ النّظم الكريم يستوعب كُلّ هذه الاحتمالات التي تطرَّق إليها المفسرون؛ لأنّه قد عبَّر بالتّبديل على الإجمال دون هذا التّفصيل الذي لجأ إليه المفسرون، ومن ثمّ فإنّي أميل إلى أنّ هذا التبديل يعمُّ كُلَّ هذه الوجوه التي ذكرتْ، لأنّ التّعبير القرآني يُوحي به ويُؤيِّده، كما أنّه

وشرح مشكل الآثار للطَّحاوي تحقيق شعيب الأرنؤوط(مؤسسة الرّسالة ، ط أولى ١٤١٥ ه= ١٩٩٤ م) ج١٠ص١٦٨.

([1]) صحيح مسلم ج١ص١٢١تحت رقم ٤٨٧،مسند الإمام أحمد ج٣٥ص ٣١٣ تحت رقم ٢١٣٩٣.

([2]) مُسْتخرج أبي عوانة الإسفرايني النَّيسابوري(موقع المكتبة الشاملة) ج١ص ٢٣٦.

([3])تفسير السمعاني ج٤ص٣٤.

الأليق بمقام الوعد والتّفضُّل والكرم وبتذييل الآية المباركة، وهو قوله (عزّ اسمه):"وكان اللهُ غفورًا رحيمًا".

وبالنظر إلى قوله (تعالى):"سيئاتهم حسنات"، من زاويةٍ أُخرى نجد الكلمةَ الأُولى مُعَرَّفةً بالإضافة إلى ضمير المشار إليهم بـــ "أولئك"؛ فتعيَّنّ أنَّ السِّيئات المضافة إليهم هي السَّيئات المعروفة، أي التي تقدَّم ذكرها، والواقعة منهم في زمن شِرْكِهم، وفي هذا تهويلٌ لهذه السّيئات وتفظيعٌ لها، كما تُوحي هذه الإضافة –وهذا هو الأهم– بخصوصيتهم في هذا الجزاء، فسيئاتهم هم لا سيئات غيرهم يُبدّلها اللهُ حسناتٍ، وذلك لأنّهم تابوا إليه وأنابوا، و النَّظم الجليل بهذا يُقرّر أنّ هذه السّيّئات الشّنيعة محتها أنور التّوبة وألطافها.

و الكلمة الأُخرى مُنَكَّرة(حسناتٍ)، والتّنكير هنا يُوحي بالتّكثير والتّعظيم، وكأنّ النّظم الجليل يُقرّر بأنّ الله (تعالى) يُبدِّلهم بسيئاتهم الشَّنيعة حسناتٍ كثيرةً و عظيمةً، وفي ذلك ترغيبٌ في التَّوبة من هذه الشَّنائع التي أشار إليها السَّياق الكريم ؛ لأنّها الباب الأساسي لهذا الفضل العظيم.

ولك أنّ تقول إنّ هذا التّبديل جزءٌ من الجزاء وليس كُلَّ الجزاء ؛ لأنّه لم يُحدَّد فيه، وهذا يُوحي بفضل الله(عزّ وجلّ) وكرمه للتّائبين العائدين إلى حظيرة الإيمان؛ ولذلك عُقِّبَ هَذَا بِقَوْلِهِ (تعالى): ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ وهو اعتراضٌ تذييلي، مُقرّرٌ لما قبله من التّبديل(المحو والإثبات)، ودالٌ على أنّ اللهَ عظيمُ المغفرة والرّحمة، والغفور يعني: أن يستر ذنوب كُلّ من تاب بهذا الشّرط، والرّحيم يعني:

أن يعامله بالإكرام، كما يعامل المرحوم، فيعطيه مكان كلّ سيئةٍ حسنةً. (١)

و صيغتا المبالغة في قوله (عزَّ اسمه)"غفورًا رحيمًا" تُوحيان بعظم مغفرته ورحمته، وقد صدَّرهما الحقّ (جلّ وعلا) بالفعل (كان)، وهو يُوحي بأزليّة الصِّفتين ودوامهما، قال الزّمخشري:" (كان) عبارة عن وجود الشّيء في زمان ماض على سبيل الإبهام، وليس فيه دليلٌ على عدمٍ سابقٍ ولا على انقطاعٍ طارىء "(٢)، و قد كُرّر الإسناد إلى الاسم الأعظم مع وضع المُظْهَر موضع المُضْمَر للتّعظيم، و لئلا يُقيّد غفرانه شيءٌ ممّا مضى، ولأنّ هذا الأمر لم تجر العادة بمثله. (٣)

وبالرجوع مرّة أخرى إلى قوله (تعالى):" فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ " نجد أنّ إسناد فعل التّبديل إلى الاسم الأعظم"الله" قد أفاد "تعظيمًا للأمر وإشارة إلى أنّه لا منازع له"(٤)

كما أنّ في قوله (تعالى)":"فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات" لمحة أخرى من لمحات الإعجاز، هي أنّ قوله: "سَيِّئَاتِهِمْ" هو المفعولُ الثّاني للتّبديلِ، والأَصل فيه أن يكون مُقَيَّدًا بحرفِ الجرّ أي بسيئاتهم، و"حَسَنَات" هو المفعول الأوّلُ وهو المأخوذُ، والمجرورُ بالباءِ هو المتروكُ. وقد صُرِّح بهذا الأصل في قولِه (تعالى): ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ

---

(١) يُرَاجع :تفسير السَّمرقندي ج ٢ص ٥٤٦، ونَظْم الدُّرر ج١٣ص ٤٣٠..

(٢)الكشّاف ج١ص٤٢٩.ويُرَاجع :البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(دار المعرفة،بيروت، لبنان، ط ثانية) ج٤ص١٢٢.

(٣)نَظْم الدُّرر ج١٣ص ٤٢٩..

(٤)المصدر السّابق ، الموطن نفسه.

جَنَّتَيْنِ﴾[1]، وقد ذكر السَّمين الحلبيّ في تعليله لحذف حرف الباء أنهَّا حذفت لفهم المعنى[2]، وأرى أنَّ فهم المعنى ليس سرًّا للحذف، وإنمَّا هو مسوِّغٌ له، ويمكن أن يُقال السرّ الإيجاز، وما ألمحه هو: أنّ حذف الباء ناسب محو السَّيئات وأَلْمَحَ إليه، والمحوُّ في الحقيقة حذفٌ، فانسجم الحذفُ مع الحذفِ، والله أعلم بأسرار كتابه.

ولما فتح الحقّ (سبحانه) باب التّوبة لمن وقع في هذه الشّنائع التي أشار إليها السّياق، أراد أن يفتح باب التّوبة لكُلّ العاصين ويُرغِّبهم فيها؛ حتى لا يُظن أنّ ما سبق من فضل الله خاصٌ بفئة معينة أو بذنوب محدّدة؛ فقال (سبحانه):﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً﴾[3]، وقد أشار إلى ذلك القُرطبي في قوله:" وقال القَفَّال[4] : يحتمل أن تكون الآية الأُولى فيمن تاب من

([1])سورة سبأ/١٦.

([2]) يُرَاجع: الدُّر المصون ج١١ ص١٨٧،ج١ص٧٦٨.

([3]) سورة الفُرْقان/٧١. .

([4]) هو:أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشَّاشيّ الشّافعي القَفَّال الكبير، الإمام العلّامة، الفقيه الأُصولي اللُّغوي، عالم خراسان، إمام وقته بما وراء النّهر، وصاحب التَّصانيف الكثيرة، تُوفي سنة خمس وستين وثلاث مائة بالشَّاش، قال الشّيخ محيي الدِّين النَّواوي:إذا ذُكِرَ القَفَّال الشَّاشِيّ فالمراد هو، وإذا قيل: القَفَّالُ المَرْوَزِيُّ فهو القَفَّالُ الصَّغير الذي كان بعد الأربع المائة، قال: ثم إنّ الشَّاشِيّ يتكرَّر ذكره في التّفسير والحديث والأُصول والكلام ، وأمّا المَرْوَزِي فيتكرّر في الفقهيَّات" سير أعلام النُّبلاء للذهبي تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط(مؤسسة الرِّسالة، ط ثالثة ،١٤٠٥هـ=١٩٨٥م)ج١٦ص٢٨٥، والأعلام لخير الدين الزِّركلي(دار العلم للملايين، ط الخامسة عشر ٢٠٠٢م)ج٦ص٢٧٤.

المشركين، ولهذا قال : "إلا من تاب وآمن" ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملًا صالحًا، فله حكم التّائبين أيضًا"[1]

وقال السَّمعاني في تفسيره:"قال بعض أهل العلم : هذا في التّوبة عن غير ما سبق ذكره، وأما التّوبة المذكورة في الآية الأُولى، فهي عمّا سبق ذكره من الكبائر". [2]، وبناء على ذلك فهذه الآية تعميمٌ بعد تخصيصٍ [3]

وفي هذه الآية يُقرّر الحقُّ(عزّ وجلّ) أنّ مَنْ تاب، و حقّق توبته بالأعمال الصّالحة؛ فهو الذي تاب إلى الله حقّ التّوبة، وفي هذا ترغيبٌ عظيمٌ في الرُّجوع إلى الله بالتَّوبة وعمل الصَّالحات.

وتأمّل دقة التّعبير القرآنيّ، فحينما كان العمل الصّالح شرطًا لقبول التّوبة في الآية السّابقة قال:"إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا" فنصّ عليه في قوله:" وعمل عملًا صالحًا"اهتمامًا به واعتناءً بشأنه وتوكيدًا له، و أما في الآية التي معنا فيُرغِّب في التّوبة والعمل الصّالح؛ ولذا قال:"وعمل صالحًا" بدون ذكر الموصوف؛ ليُوحي بأنّ أيّ عملٍ صالحٍ مهما كان حجمه، فإنّه يَصِلُ إلى الله(سبحانه) و يَقْبله ويُثيب عليه، وقد ألمح إلى ذلك الإمام البقاعي(طيّب الله ثراه) في

---

(1) تفسير القُرْطبي ج١٣ص٧٩.

(2) تفسير السَّمعاني ج٤ص٣٤.

(3) يُرَاجع :تفسير البيضاوي ج٤ ص٢٢٨، وتفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣٠، وروح المعاني ج١٩ص ٥٠.

قوله:"ولما كان في سياق التّرغيب، أعراه من التّوكيد، فقال:"صالحًا" ولو كان كُلٌّ من نيته وعمله ضعيفًا"[1]

وقد صاغ الحقُّ(جلّ شأنه) هذا التّرغيب في أسلوب الشّرط الذي يرتبط فيه الجواب بفعل الشّرط؛ ليُوحي بارتباط الوعد–مضمون جواب الشّرط– بفعل الشّرط وتوقُّفه عليه، فإذا لم يتحقّق الشّرط لا يتحقّق الجواب، وفي ذلك استثارةٌ للهِمم، وشحذٌ للعزائم، واستنفارٌ للنّفوس الذّكية بأن تَعود إلى ربّها، وتتخلَّص من نوازع الهوى ووساوس الشّيطان.

وقد جاء جواب الشّرط حافلاً بوسائل التّوكيد ودقائق التّعبير؛ لأنّ المخاطبين بهذه الآية هم العُصَاة، والرّحمن يدعوهم إليه، ويفتح لهم باب التّوبة، و من ثمّ يُؤكِّد لهم وَعْدَهُ بالقبول؛ حتى يُقبلوا عليه ويَفِرُّوا من الشّيطان، وأوّل ما يلقانا من هذه الوسائل حرف الفاء في قوله"فإنّه" فهو يدلُّ على التَّرتيب والتَّعقيب ويُوحي بالسُّرعة؛ إذ يشي بأنّه إذا تحقَّقت التَّوبة والعمل الصالح تحقَّق القبول و ما ترتَّب عليه، وحرف(إنّ) لتوكيد مضمون الجملة، وهو توبته إلى الله، والتّعبير بالجملة الاسميّة"فإنّه..." يُوحي بثبوت هذه التّوبة واستمرارها،كما أنّ التّعبير بالمضارع في قوله"يتوب" يُؤكّد الدّلالة على الاستمرار بدلالته على التّجدد، وكأنّ في هذا "وعدًا من الله (تعالى) بأنْ يُثبّته على القول الثّابت، إذا كان قد تاب وأيّد توبته بالعمل الصّالح، أي فإنّه يستمر على توبته، ولا يرتدُّ على عقبيه"[2]، والتّعبير بالمصدر في قوله:" متابًا"

([1]) نَظْم الدّرر ج١٣ص٤٣١.

([2]) التّحرير والتّنوير ج ١٩ص ٧٥.

معناه التّأكيد كقوله (تعالى) : ﴿وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾[1]،أي فإنّه يتوب إلى الله حقًّا فيقبل الله توبته حقًّا[2].

قال ابن عطية:" أكّد بهذه الألفاظ أمرَ التّوبة، والمعنى : ومن تاب فإنّه قد تمسّك بأمرٍ وثيقٍ، وهكذا كما تقول لمن تستحسن قولَه في أمره: لقد قُلْتَ يا فلان قولًا، فكذلك الآية معناها مدح المتاب، كأنّه قال: فإنّه يجد بابًا للفرج والمغفرة عظيمًا "[3]

وبالنظر في الشّرط والجزاء في قوله﴿ وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾ يتّضح لنا أنّ فِعْلَيْ الشّرط والجزاء شيءٌ واحدٌ، وهو التّوبة إلى الله (سبحانه وتعالى) (فمن تاب ...يتوب)، وهذا يدفعنا إلى البحث عن الجديد الذي أتى به جواب هذا الشّرط، وقد راجعتُ في ذلك ما تيسر لي من أقوال المفسرين، فوجدتُهم(رحمهم الله جميعًا) قد ذكروا عدّةَ احتمالاتٍ؛ لتوجيه فهم النّظم الجليل على أساسها، ذكر الزّمخشري ثلاثة وجوه في قوله:"يريد : ومن يترك المعاصي، ويندم عليها، ويدخل في العمل الصالح، فإنّه بذلك تائبٌ إلى الله (مَتاباً) مرضياً عنده، مُكَفِّراً للخطايا، محصلاً للثّواب . أو فإنّه تائبٌ متاباً إلى الله الذي يعرف حقَّ التائبين، ويفعل بهم ما يستوجبون ، والذي يحب التّوابين ويحب المتطهّرين . وفي كلام بعض العرب : لله أفرحُ بتوبة العبد من المضل الواجد ، والظّمآن الوارد ، والعقيم الوالد . أو : فإنّه يرجع إلى الله وإلى ثوابه مرجعاً حسناً وأيّ

([1]) سورة النّساء/١٦٤ .

([2])تفسير القُرْطبي ج١٣ص٧٩.

([3]) المحرَّر الوجيز ج ٤ص٢٢١.

مرجع ".[1]

وبالنّظر في كلام الزمخشري نجد أنّه جعل في الوجه الأوّل مناط الفائدة المفعول المطلق والتّنكير، أي متاباً كاملًا عظيمًا، و الوجه الثّاني في قوله (تعالى)"إلى الله" فهو كناية عن عظيم كرم الله للتّائبين إليه ،والوجه الثّالث في قوله (تعالى) "إلى الله" على أنّه من حذف المضاف، أي يرجع إلى ثوابه وكرمه.وبذلك يكون الجواب والشّرط متغايرين.

وقد ردَّد جمع من المفسرين ما ذكره الزّمخشري[2]، وأضاف بعضهم احتمالاتٍ بعيدةً[3]، لكنّ الطّاهر بن عاشور (رحمه الله) قد تحدّث عن ذلك بكلام دقيق أفاد أغلبه من الزّمخشري؛ وأضاف إليه ما يستحقّ أن يسجل له، يقول:" إذا وقع الإخبارُ عن شيءٍ أو توصيفٌ له أو حالةٌ منه بمُرادفٍ لماَ سبق مثلُه في المعنى دون زيادةٍ تَعَيَّن أن يكون الخبرُ الثّاني مستعملاً في شيءٍ من لوازم معنى الإخبارِ يُبَيِّنُه

---

(1) الكشّاف ج٣ص ٣٠٠.

(2) يُرَاجع: تفسير البيضاوي ج٤ ص٢٢٨، وتفسير أبي السّعود ج٦ص ٢٣٠، وروح المعاني ج١٩ص ٥٠.

(3) من ذلك قول السّمعاني :"ومعناها على وجهين : أحدهما : أنّ معنى الآية : ومن أراد التّوبة وعزم عليها فليتبْ لوجه الله تعالى ، ولا ينبغي أن يُريد غيره ، كالرّجل يقول : مَنْ اتَّجر فليتَّجر في البِّر ، ومن ناظرْ فليناظرْ في الفقه ، فيكون قوله : " فإنّه يتوب إلى الله متابًا " على هذا القول خبرًا بمعنى الأمر ، أي : تُبْ إلى الله توبةً ، والوجه الثّاني : أنّ معنى الآية : من تاب فليعلم أنّ توبته إلى الله ومصيره إليه و ثوابه منه ، كالرّجل يقول لغيره : إذا كلمتَ الأمير فاعلمْ أنّه أميرٌ ، وإذا كلمتَ أباك فاعلمْ أنّه أبوك . " تفسير السّمعاني ج٤ ص ٣٤.

المقامُ ، كقول أبي الطّمحان القَيْنِي:

وَإِنِّي مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ هُمُ هُمُ

وقولِ أَبي النَّجْمِ:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي

وَقَوْلِ النّبيّ (ﷺ): «مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي».فقوله (تعالى) هنا:" وَمَنْ تابَ وَعَمِلَ صالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتاباً" وقع الإخبار عن التَّائب بأنَّه تائبٌ؛ إذ المتابُ مصدرٌ ميميٌّ بمعنى التّوبة؛ فيتعيّنُ أن يُصْرَفَ إلى معنى مُفيدٍ، فيجوزُ أن يكون المقصودُ هو قوله:"إلى الله" فيكونَ كنايةً عن عظيم ثوابه، ويجوز أن يكون المقصودُ ما في المضارع من الدّلالةِ على التّجدُّد، أي فإنّه يستمرُّ على توبته ولا يرتدُّ على عَقِبَيْهِ فيكونُ وعدًا من الله (تعالى) أن يُثَبِّتَه على القولِ الثّابتِ، إذا كان قد تاب وأيّد توبَتَه بالعمل الصّالحِ.

ويجوز أن يكون المقصود ما للمفعول المُطْلَق من معنى التّأكيد، أي من تاب وعمل صالحًا فإنّ توبته هي التّوبةُ الكاملةُ الخالصةُ لله على حدّ قول النّبيّ (ﷺ):«إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[1]؛ فيكون كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى

(1)صحيح البخاري عن عمر بن الخطَّاب تحقيق مصطفى ديب البغا(دار ابن كثير، اليمامة، بيروت ط ثالثة ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م) ج١ص٣.

اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً ﴾[1]وذكر المفسِّرون احتمالاتٍ أُخرى بعيدةً.والتَّوكيدُ بِـــ (إِنَّ) على التَّقادير كُلِّها لتحقيق مضمون الخبر."[2]

فالعلامة الطّاهر ذكر ثلاثة احتمالات لتوجيه فهم الآية المباركة، الأَوّل: أن يكون مناط الفائدة قوله (تعالى):"إلى الله" وجعله كناية عن عظيم ثوابه. الثّاني: أن يكون المقصود الاستمرار التّجدُّديّ الذي أوحى به المضارع على سبيل الوعد من الله (تعالى). الثّالث:أن يكون المقصود ما للمفعول المطلق من معنى التّوكيد، أي يتوب توبةً كاملةً خالصةً.

وقد أفاد الطّاهر من الزّمخشريّ في الوجهين :الأوّل والثّالث، أما الثّاني فهو من إضافته، وإن كان في الوجه الأَوّل قد دَمَجَ بين وجهين ذكرهما الزّمخشري.

فعلى أيّ هذه الوجوه وجهتَ فهم القول الكريم، تجلّى لك مغايرة الشّرط للجواب وتجلّى لك عدة أغراض كُلّها متناسبة غير متناقضة، ومناسبة للنّظم الجليل.

بقيت مسألة مُهمّة تتعلق بهذه الآيات، هي أنّه لا خلاف بين أهل العلم في صحة توبة الكافر، والزّاني، والقاتل في زمن الشّرك لمزية الإيمان، ولأنّ الإسلام يجبُّ ما قبله، لكنّهم اختلفوا في القاتل من المسلمين لأخيه المسلم متعمدًا؛ فقال جمهور العلماء له التّوبة، وجعل هؤلاء قاعدتهم قوله (تعالى) " إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا

([1])سورة التّحريم:٨.

([2]) التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٨.

دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ "[1] ؛لأنّ القاتل جُعِل في المشيئة كسائر التّائبين من الذّنوب، ويتأوّلون الخلود الذي في آية القَتْل في سورة النّساء بمعنى الدّوام إلى مدة.وقال ابن عباس وغيره لا توبة للمؤمن الذي يقتل مؤمنًا متعمدًا.[2]

وهذه الآيات التي جاءت في الثّناء على (عباد الرَّحمن) ، قد أكّد فيها الحقّ (جلّ وعلا) أمر التّوبة، وبيّن أنّ من تمسّك بها تمسّك بأمرٍ وثيقٍ، ومن دخل من بابها فقد دخل من بابٍ واسعٍ للفَرَجِ والمغفرة، ومن ثَمَّ فقد دلَّت الآيات على أنَّ التَّوبة تمحو آثام كُلِّ ذنبٍ من هذه الذُّنوب المعدودة، ومنها قتل النّفس بدون حقٍ وهو المعروف من عُمُومَاتِ الكتابِ والسُّنَّة [3]

الصّفتان: التّاسعة والعاشرة:

التَّنزُّه من شهادة الزُّور، والإعراض عن اللَّغو.

وجاءت هاتان الصِّفتان-وهما من كمالات الإيمان- في قول الله (سبحانه) في الخبر السّادس في سياق آيات وصف (عباد الرّحمن): ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ﴾[4]،

---

(١)سورة النّساء:٤٨،١١٦ .

(٢) يُراجع :المحرَّر الوجيز ج ٤ص٢٢١.و تفسيرالقُرْطبي ج ١٣ص٧٧ وفتح القدير للشّوكاني ج٤ ص٨٨

(٣)التّحرير والتّنوير ج١٩ص٧٨.

(٤)سورة الفُرْقان/٧٢.

ولاشتهار (عباد الرّحمن) بالاتِّصاف بهاتين الصِّفتين، بناهما النَّظم الجليل على اسم الموصول، ولأَجل المُنَاسَبة بينهما عطف الثّانية على الأُولى، ولم يُكَرِّر اسم الموصول كما كُرِّرَ في الصِّفات قبلها وبعدها؛ لأنّهما كالصّفة الواحدة

والصّفة الأُولى في قوله (عزّ اسمه):"لا يشهدون الزُّور"، فهو يتضمّن مدحهم والثّناء عليهم بأنهّم لا يشهدون الزُّور، ومدحهم بعدم شهادة الزُّور من الأساليب القرآنيّة التي تتمتّع بالثّراء والإحكام والإيجاز، تختلف حولها الفهوم، وهي تتحمَّلها وتستوعبها في إيجاز محكم، ولكنّها تتأبّى أن تخضع لفهم بعينه، وقد ذكر علماؤنا الأجلاء أنّ وفرة الاحتمالات دليلٌ على ثراء الكلام وامتلائه، وبلاغة المتكلم وقدرته؛ ولذا عدّ العلماء هذا وجهًا من أهم وجوه الإعجاز القرآني .

فقوله (تعالى):"لا يشهدون الزّور" يحتمل أن يكون الفعل(يشهدون) من المشاهدة والحضور، والمعنى حينئذ-كما ذكر الرّاغب- لا يُشاهدون الزّور ولا يحضرونه بنفوسهم ولا بهممهم وإرادتهم[1]، فالزّور مفعولٌ به للفعل (يشهدون)، وهو: الباطل بكُلّ ألوانه وأنواعه سواء أكان قولاً أم فعلًا، لكنّه غلب على الكذب[2] ، "وأصله تحسين الشَّيء ووصفه بخلاف صفته؛ حتى يخيّل إلى مَن سمعه أو يراه أنّه بخلاف ما هو به ، فهو تمويه الباطل لما توهّم أنّه حقّ" . [3]قال

([1]) المفردات للرَّاغب الأصفهاني ص ٢٦٩.

([2]) يُرَاجِع:تفسير السّمرقندي ج٢ ص٥٤٧، وتفسير القُرْطبي ج ١٣ص ٧٩. والتّحرير والتّنوير ج١٩ ص٧٩.

([3]) تفسير الثّعلبي ج٧ ص١٥١.

الشّوكاني (رحمه الله) :"والأَوْلَى عدم التّخصيص بنوعٍ من أنواع الزُّور، بل المراد :الذين لا يحضرون ما يصدق عليه اسم الزّور كائنًا ما كان"[1]، ونُسب هذا القول إلى الجمهور، وهو أنسب بمقام المدح والثّناء؛ لأنّه ينفي عنهم مشاهدة كُلّ ألوان الزّور.

و(الزّور) إمّا أن يكون على حذف مضافٍ أي محالّ الزّور و مجالسه، وإمّا أن يكون على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الحالّية؛ وفي التّعبير بالحالّ عن المحل إظهارٌ للسّر في عدم شهودهم هذه المجالس، وهو وجود الزّور فيها؛ فكأنّه قال: لا يحضرون مجالس الزُّور لوجوده فيها.

قال الزّمخشري"يحتمل أنّهم ينفرون عن محاضر الكذّابين ومجالس الخطّائين، فلا يحضرونها ولا يقربونها، تنزُّهاً عن مخالطة الشّر وأهله، وصيانة لدينهم عمّا يثلمه؛ لأنّ مشاهدة الباطل شركةٌ فيه، ولذلك قيل في النّظّارة إلى كُلّ ما لم تسوّغه الشَّريعة : هم شركاء فاعليه في الإثم؛ لأنّ حضورهم ونظرهم دليل الرّضا به وسبب وجوده والزِّيادة فيه ؛ لأنّ الذي سلَّط على فعله هو استحسان النّظّارة ورغبتهم في النّظر إليه"[2]

والنّظم الكريم على هذا الاحتمال يمدح (عباد الرَّحمن) غاية المدح، ويثني عليهم غاية الثناء؛ لأنّه إذا نفي عنهم حضور الزّور ومشاهدته، فإنّ ذلك يلزمه نفي الفعل ، وهذا من باب الكناية، فكأنّ الحقّ (سبحانه)

([1]) فتح القدير ج٤ ص ٨٩.

(٢)الكشّاف ج٣ص٣٠١.

بأسلوبٍ شفَّافٍ يبرئ (عباد الرَّحمن) من فعل الزّور، وأكّد ذلك بأنّهم لا يُشاهدون الزّور، لأنّهم إذا كانوا لا يشاهدونه فكيف يفعلونه؟!!

وهذا الأسلوب في مدحهم والثَّناء عليهم أبلغ من الحقيقة؛ لأنّ الكناية-كما يقولون- بمثابة الدّعوى بدليلها؛ فهم لا يفعلون الباطل والدّليل على ذلك أنّهم لا يحضرون مشاهده.

ويحتمل أن يكون الفعل"لا يشهدون" من الشّهادة بِمَعْنَى الإِخْبَارِ عَمَّا عَلِمُوهُ، لا من المشاهدة بمعنى الحضور، والزُّور: الكذب، والمعنى: لا يشهدون بالزّور، و الزُّورُ حينئذ مَنْصُوبٌ عَلَى نَزْعِ الخَافِضِ، أَوْ مَفْعُول مُطْلَق لِبَيَانِ نَوْعِ الشَّهَادَةِ، أَيْ لا يَشْهَدُونَ شَهَادَةَ الزُّور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه[1]، والحقّ (سبحانه) – على هذا الاحتمال -يمدحهم بأنّهم لا يشهدون شهادة الزُّور، وهي الشَّهادة الباطلة.

وعلى كلا الاحتمالين أرى أنّ النّظم الجليل يُعرّض بالمشركين الذين كانوا يحضرون مجالس الباطل، وَهِيَ مَجَالِسُ اللَّهْوِ، وَالغِنَاءِ، وَالغَيْبَةِ، وَنَحْوِهَا، وكذلك كانوا يشهدون شهادة الزُّور ولا يتورَّعُون.

والصّفة الأخرى: وهي الإعراض عن اللَّغو، والمرور به مرور الكرام تضمَّنها قولُه (تعالى):﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً﴾، وقد تعدَّدت أقوالُ المفسرين في تحديد المراد من اللَّغو؛ فمنهم من حاول

---

(١) يُرَاجع: المصدر السّابق، الموطن نفسه، والمحرّر الوجيز ج٤ص٢٢٢، و البحر المحيط ج٦ص٤٧١، وتفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣٠، وفتح القدير ج٤ ص٨٩ ، و التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٧٩.

حصره في الكلام السّاقط والسَّفه الذي لا خير فيه[1]، ولعلّ الذي شجَّعهم على ذلك مجيء السّمع معه في عدة آيات، هي قوله (تعالى) : ﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾[2]، وقوله:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾[3]، وقوله:﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً﴾ إِلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾[4]، وقوله:﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً﴾.[5] ﴿لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً﴾[6]

ومنهم من جعله عامًا يشمل كُلّ سَقْطٍ من فعلٍ أو قولٍ؛ فيدخل فيه الغناء، واللَّهو، و سَفَه المشركين وأذاهم للمؤمنين، وذكر النّساء، وغير ذلك من المنكر سواء أكان قولًا أم فعلًا، ومن هؤلاء العلماء الصَّنعاني والسَّمعاني[7] ، والزَّمخشري يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك؛ إذ أراه قد

---

(١)مفردات غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني مادة:لغا ص٤٥١، و التّحرير والتّنويرج١٩ ص٧٩

(٢)سورة مريم/٦٢.

(٣)سورة القصص/٥٥.

(٤)سورة الواقعة/٢٥-٢٦.

(٥)سورة النَّبأ/٣٥.

(٦)سورة الغاشية/١١.

(٧)الصَّنْعَانِي :هو أبو بكر عبد الرزَّاق بن همَّام بن نافع الحِمْيَريُّ اليماني الصَّنْعَاني الشِّيعي من صغار أتباع التّابعين وأحد الأعلام صاحب التّصانيف الكثيرة (ت ٢١١هـ) . سير أعلام النُّبلاء للذَّهبي ج٩ ص٥٦٣، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء

وسّع دائرة اللَّغو فأدخل فيه مالا فائدة منه، حتى وإن لم يكن حرامًا ، وذلك في قوله:" اللّغو : كُلّ ما ينبغي أن يُلْغَي ويُطْرَح . [1]

وبالرّجوع إلى الاستعمال القرآني لمادة اللّغو ومشتقاتها- التي وردت إحدى عَشْرة مرّة- وجدتُ أنّه يُراد منه الكلامُ الذي لا يُعتدُّ به، أو القبيح في أغلب هذه المواقع، ويُراد منه الباطلُ سواء أكان قولًا أم فعلًا في آيتين، هما :آية المؤمنون:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [2]، وآية الفرقان:" وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً"؛ فهاتان الآيتان يُحمل اللَّغو فيهما على العموم؛ فيندرج تحته كُلُّ باطلٍ من شأنه أن يُلغى ويُطْرَح- كما قال الزّمخشري-، وهذا أنسب بمقام مدح المؤمنين في (سورة المؤمنون) ومدح (عباد الرَّحمن) في (سورة الفُرْقان)، ففي (سورة المؤمنون) مدحهم الحقُّ (جلّ وعلا) بعدما أكَّد فلاحهم- بأنّهم يُعرضون عن اللَّغو بكُلّ ألوانه، ويجافون أهله، وحمل اللّغو على العموم أولى من حمله على الكلام السّاقط أو القبيح؛ لأنّه أنسب بمقام مدحهم.

وفي (سورة الفُرْقان) يمدح الله (تعالى) (عباد الرَّحمن) بأنّهم إذا مرُّوا باللَّغو أكرموا أنفسهم بعدم النَّظر إليه والاهتمام به، واللَّغو هنا أيضًا عامٌ ، يتضمَّن كُلَّ باطلٍ من قولٍ أو عملٍ ، وحَصْرُه في القول

الزَّمان لابن خلكان ج٣ ص٢١٦، ويُرَاجع: تفسير الصّنعاني ج٣ ص٧٢، وتفسير السمعاني ج٤ص٣٥،و المحرّر الوجيز ج ٤ص٢٢٢.

(١)الكشّاف ج ٣ص ٣٠١.

(٢)سورة المؤمنون/٣.

السّاقط الذي لا يخرج عن فكرٍ ورويَّةٍ أو القبيح لا يناسب مقام مدحهم ولا يُؤيّده سياقُ الآيات.

ومن ثمّ فإنَّني أميل إلى حمل اللّغو على العموم لمناسبته للسِّياق والمقام، وعند الحمل عليه تتناسب دلالة جملة:"وإذا مرُّوا باللّغو مَرُّوا كِرَامًا" مع دلالة جملة:"والذين لا يشهدون الزُّورَ"؛ إذ يكون المراد من الزُّور واللَّغو واحدًا، عبَّر عنه تارةً بالزّور لميله عن جهة الحقّ وتارةً باللّغو؛ لأنّه من شأنه أن يُلغى ويُطرح ، وعليه يكون الكلام من وضع المُظْهَر موضع المُضْمَر، والمعنى: والذين لا يحضرون الباطل وإذا مرُّوا به على طريق الاتفاق أعرضوا عنه [1]وَهَذَا ثَنَاءٌ عَلَى المُؤْمِنِين بِتَرَفُّعِهِم عمّا كَان عَلَيْه أهل الجَاهِلِيَّة، وفي وضع الظّاهر موضع المضمر زيادة تمكين وتقرير للمعنى المراد تثبيته في النّفس، وهو إعراض (عباد الرَّحمن) عن اللّغو عند مرورهم عليه؛ وذلك لأنّ التّعبير بالاسم الظّاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره في النّفس من التّعبير بالضّمير،كما أنّ فيه إظهارًا وتجلية للدّاعي لعباد الرَّحمن في إعراضهم عن الباطل عند مرورهم عليه، فهم يمرُّون عليه كرامًا ؛ لأنّه لغو ، ولو عبّر عنه بالضّمير فقيل: وإذا مرُّوا به، لفات هذا المعنى.

لكنّ شيخنا الأستاذ الدُّكتور محمد أبو موسى ذهب إلى أنّ الجملة الأُولى وهي قوله:"والَّذين لا يشهدون الزُّور" تعني البعد عن شهادة الزُّور، وهي الشَّهادة التي لا تُواطئ الحقيقة، والجملة الشَّرطية وهي قوله:" وإذا مَرُّوا باللّغو مَرُّوا كِرَاماً" تعني عدم ملابسة اللَّغو، والبعد

---

(١) يُرَاجع: روح المعاني ج١٩ص ٥١.

عن مخالطة أهله والسُّلوك المستقيم، وهي أفسح مدى وأكثر اعتدالًا؛ لأنّ مجانبة اللَّغو أعمُّ من مجانبة الزُّور، والزُّور من اللَّغو، وكأنّ الصّفة ارتقت من الخصوص إلى العموم، وهذه الجملة الثّانية من الضّرب الّذي قلّ لفظه واتّسع معناه. [1]، وهذا الذي ذكره شيخنا جيّد، لك أن تحمل النّظم الجليل عليه أو على ما ذكرته.

وآثر الحقُّ(سبحانه) التّعبير بإذا على(إنْ) في قوله (تعالى):"وإذا مَرُّوا باللّغو مَرُّوا كِرَاماً" ، لأنّها أنسب بمقام مدح (عباد الرَّحمن) والثّناء عليهم؛ وذلك لأنّها هي والفعل بعدها يُشعران بتحقُّق مرور (عباد الرَّحمن) على اللَّغو مرور الكِرَام الذين يعرضون عنه، ويستحون منه، ويصبرون على أذى أهله، وفي ذلك من المدح لهم والثَّناء عليهم ما فيه؛ وهذا بخلاف (إنْ) فإنّها تُستعمل في غير المقطوع به، وكيف يمدح المرء بشيءٍ غير مقطوعٍ به ؟!.

وفي التّعبير بالفعل(مَرُّوا) في الشّرط والجزاء، إشارة إلى إنّ (عباد الرَّحمن) لا علاقة لهم باللّغو، فلا يُشاركون فيه، ولا يختلطون بأهله، ولا يحضرون مشاهده، ولا يشاهدونه؛ لأنّ كُلّ ذلك ينال من دينهم، ويُشجّع على اللَّغو وعلى كثرة أهله، كُلّ ما يمكن أن يحدث منهم هو المرور عليه من غير قصد ولا نية، وإذا حصل بالاتفاق والمصادفة أن مرُّوا عليه، مرُّوا مرور الكِرَام، وفي ذلك تأصيلٌ لمنهج (عباد الرَّحمن) في تعاملهم مع اللّغو وأهله، أما صناعة اللّغو والباطل فإنّ النّظم الجليل في هذه الآية المباركة ، وفي غيرها من القرآن كُلّه، يُوحي لنا بأنّهم لا يمكن أن يكونوا من صُنَّاعه، فالذي يراجع القرآن كُلَّه لا يجد لهم أدنى

([1])دلالات التّراكيب ص٣٧٣.

علاقة به؛ ولذلك مدحهم الله (تعالى) بقوله:﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(١)، وبيّن موقفهم إذا سمعوه فقال:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ﴾ (٢)، وإذا مرُّوا به﴿ مَرُّوا كِرَاماً﴾(٣)؛ ولذلك أكرمهم في دار كرامته بأن جعلهم لا يسمعون اللّغو، قال (تعالى):﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً إِلا سَلاماً وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾(٤)، ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لا لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ﴾(٥) ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا تَأْثِيماً ❁ إِلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً﴾(٦)﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلا كِذَّاباً﴾.(٧)

وقد عبّر باللَّغو في قوله (تعالى):"مرُّوا باللَّغو" والمراد أهل اللّغو، وذلك على سبيل المجاز المرسل الذي علاقته الحالِّية أوعلى تقدير حذف مضاف، وإن كنتُ أميل إلى الأوّل؛ لما فيه من مبالغةٍ لا تُوجد في الحذف، وقد أوحى التّعبير باللّغو عن أهله بأنّ السّر في إعراض (عباد الرَّحمن) عن أهل اللّغو، ومرورهم عليهم مرور الكِرَام، هو لغوهم وباطلهم وتلبُّسهم به حين المرور عليهم، وليس هناك سرٌّ آخر.

---

(١)سورة المؤمنون/٣.

(٢)سورة القصص/٥٥.

(٣)سورة الفُرْقان/٧٢.

(٤)سورة مريم/٦٢.

(٥)سورة الطُّور/٢٣.

(٦)سورة الواقعة/٢٥-٢٦.

(٧)سورة النَّبأ/٣٥.

كما أوحى التّعبير المجازي بالمبالغة في شناعة اللّغو وقبحه؛ فقد عمّ أهله وصانعيه حتى صاروا لغوًا مثله، وفي ذلك من التّشنيع عليهم ما فيه ، كما أنّ فيه تنفيرًا لهم منه.

وقوله (تعالى):" مَرُّوا كِراماً"جواب الشَّرط، وهو كناية عن عدم ملابسة الباطل ومخالطة أهله، وهو يعني أنّ (عباد الرَّحمن) إذا مرُّوا على أهل اللَّغو- وهم متلبِّسون بلغوهم- مرُّوا وهم في حال كرامة، أي متنزهين عمّا يشينهم [1]؛ و النّظم الجليل بذلك يُقرِّر هنا أنّ (عباد الرَّحمن) إذا مرُّوا على أهل الباطل والزُّور أكرموا أنفسهم بالتنزُّه عمّا يقومون به، وهم في هذا بخلاف السُّفهاء الَّذين إذا مرُّوا على أهل الباطل أَنِسُوا بهم، ووَقَفُوا عليهم وَشَارَكُوهم فِي لَغْوِهِمْ، وكأنّه يُعرِّضُ بهم .

وإذا كان النَّظم الجليل يُقرِّر إكرامهم لأنفسهم بالتّنزُّه عمّا يقوم به أهل الباطل فإنّه لا يعني أنهم يمرُّون عليهم وهم صامتون غافلون عمّا يصنعون، عاجزون ضعفاء، وإنمّا يعني أنّهم يمرُّون ملتزمين بشرع الله، ومن هنا تظهر لنا دقّة الملاءمة في كلمة"كراماً"؛ لأنهّا وصفت موقف المسلم بأنّه موقفٌ كريمٌ مرضيٌّ عنه من الله ربِّ العالمين، وتركت تحديد ما يقوم به (عباد الرّحمن) ملتزمين بشرع الله وتفصيلات أصوله، ولو أنّك قُلْتَ:مرُّوا غير عابئين، أو مرُّوا منصرفين، أو مرُّوا رافضين...إلى آخره، لم تُصب ما أصابته كلمة

([1])يُقال تَكَرَّمَ عن الشَّيء وتَكَارَم أي تَنَزَّه، وتَكَرَّم فلانٌ عمَّا يَشِينُه إذا تَنَزَّه وأَكْرَم نفسه عن الشَّائِنَات، والكريم:الذي كَرَّم نفسه عن التَّدنُّس بشيءٍ من مخالفة ربه . اللِّسان:مادة كرم.

"كرامًا" ؛ لأنّها تعني أنهّم اتّخذوا الموقف الأفضل، سواء أكان ترك اللّغو أم مواجهته على وفق مقتضيات الأحوال والأصول الشّرعية[1]

وقد أعاد التّعبير القرآني الفعل (مرُّوا) في الجواب بعدما ذكره في الشّرط، و ذكر الطّاهر بن عاشور أنّ ذلك من محاسن الاستعمال، وحاول التّعليل له بأنّ إعادة هذا الفعل لبناء الحال عليه، وجعل نظيره قوله (تعالى):﴿ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاء الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[2] وقول الأحوص:

فَإِذَا تَزُولُ تَزُولُ عَنْ مُتَخَمِّطٍ تُخْشَى بَوَادِرُهُ عَلَى الأَقْرَانِ[3]

وقد أشار ابن جنّي إلى هذه الظّاهرة التي يتكرَّر فيها الفعل في الشَّرط والجواب وغيرهما، وبيّن أنّ ذلك يكون محالًا، إذا كان على الإطلاق من دون تقييد الثّاني ليفيد فائدة تجعله غيرَ الأَوَّل؛ فقال – بعدما ذكر بيت الأحوص السّابق–:"محالٌ أن تقول:إذا قمتُ قمتُ، وإذا أقعدُ أقعدُ؛ لأنّه ليس في الثَّاني غير ما في الأوَّل، وإنّما جاز أن تقول:فإذا تزولُ تزولُ لما اتَّصل بالفعل الثّاني من حرف الجر المفادة منه فائدة، ومثله قوله (تعالى):هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما

---

(1) دلالات التّراكيب ص٣٧٤(بتصرُّف).

(2) سورة القصص/٦٣.

(3) يُرَاجع: التّحرير والتّنوير ج ١٩ص٧٩، وشعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق عادل سليمان، وتقديم د .شوقي ضيف(مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ثانية ١٤١١هـ=١٩٩٠م) ص ٢٥٧.

غوينا" ولو قال:هؤلاء الذين أغويناهم أغويناهم لم يفد القول شيئًا؛ لأنّه كقولك:الَّذي ضربتُه ضربتُه، والَّتي أكرمتُها أكرمتُها، ولكن لما اتَّصل بأغويناهم الثّانية قوله (كما غوينا) أفاد الكلام ، كقولك الذي ضربتُه ضربتُه ؛لأنّه جاهلٌ...". [1]

إذًا فإعادة الفعل (مرُّوا) – كما أشار ابن جنّي والطّاهر بن عاشور– لإفادته فائدة جديدة وهي تقييده بالحال (كِرَامًا)، وأضيف إلى ذلك أنّ هذه الإعادة تُؤكِّد نفي العلاقة بين (عباد الرّحمن) وأهل الزُّور واللّغو؛ لأنَّها لا تكون إلا بالمرور اتفاقًا، وإذا كان القرآن الكريم يمدح (عباد الرّحمن) بهذا، فإنّه يُنَبّه من يريد أن يكون منهم بألّا تكون بينه وبين أهل اللّغو والباطل أدنى علاقة ؛ لأنّ أيّ علاقة بهم تُؤدّي إلى تشجيعهم على باطلهم والزّيادة فيه.

الصّفة الحادية عَشْرة:

الإقبال على الله والحرص على العمل بأوامره.

وقد تضمّن هذه الصِّفة قوله(تعالى) في الخبر السّابع :﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2]؛ و هو كنايةٌ عن صفة الإقبال على الله (عزّ وجلّ) ؛ فكأنّ الحقّ (جلّ وعلا)

([1])التّنبيه إلى شَرْحِ مُشْكِلِ أَبْيَاتِ الْحَمَاسَةِ لابن جنّي تحقيق الدُّكتورة سيدة حامد عبد العال والدُّكتورة تغريد حسن أحمد عبد العاطي ص٨٧.

([2])سورة الفُرْقان/٧٣.

يقول: هم على هذه الصّفة ، والدّليل على ذلك أنّهم إذا ذُكِّرُوا بآيات ربّهم لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا.

والحقّ(عزّ وجلّ) بهذه الصّفة يُجلِّي لنا حال المؤمنين عند دعوتهم إلى الحقّ، و تذكيرهم بآيات القرآن الكريم، فيمدحهم، ويُثني عليهم بأنّهم لم يخرُّوا عليها صُمّاً وعُميانًا، وهم بهذه الحالة يختلفون عن المشركين الذين تعرّض لهم سياقُ السُّورة قبل وصف (عباد الرّحمن)، فهم عند تذكيرهم بآيات الله ودعوتهم إلى الحقّ يخرُّون عليها صُمًّا وعُميانًا، والآية بذلك تمدح (عباد الرّحمن) وتُعرّض بالمشركين وتذمُّهم؛ ولأجل هذا التّعريض جيء بالصّفة منفية؛ ليحصل الثّناء على المؤمنين مع التّعريض بتفظيع حال المشركين[1]، فإنهم إذا ذُكِّروا بآيات الله خرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا، والمدح والتّعريض مقصدان أساسيان للآية المباركة.

وبالتّأمّل في نظم الآية الكريمة نجده زاخرًا بما يلفت النَّظر ويسترعي الانتباه، وأول ما يلقانا من ذلك مجيء هذه الصّفة في إطار اسم الموصول، وهذا يُوحي بشُهْرة (عباد الرَّحمن) في الاتّصاف بهذه الصّفة ، ثم مجيئها في أسلوب الشّرط مع إيثار (إذا) على غيرها من الأدوات، وهو يُوحي بتحقُّق الشَّرط والجزاء ، وهو التَّذكير وما ترتَّب عليه من إقبال على الله (عزّ وجلّ)، وبناء الفعل "ذُكِّرُوا " على ما لم يُسَمَّ فاعلُه، يفيد المدح والثّناء على (عباد الرَّحمن) ؛ لأنّهم لايعنيهم ممن أتى التّذكير، إنما الّذي يعنيهم أن يكون التّذكير بآيات الله (سبحانه)، سواء عندهم أيُّ مُذَكِّر من قرآنٍ أم سُنّةٍ أم كَوْنٍ، أم مؤمنٍ:

([1])يُرَاجع: تفسير أبي السُّعود ج ٦ ص٢٣١ والتّحرير والتّنوير ج ١٩ص ٨١.

صغيرٍ أو كبيرٍ، فما إن يُذكَّرُوا يُقبلوا على الله (تعالى) ويَخِرُّون له سُجَّدًا وبُكيًّا سامعين مبصرين لما أُمروا به ونُهوا عنه، وفي قوله:"آيات ربّهم" عموم؛ فلم يَقُلْ ذُكِّروا بالقرآن، وإنّما قال بـــ "آيات"؛ لتشمل القرآن وغيره من آيات الله المشحون بها الكَوْن، وهي تدلّ على وجوده(سبحانه)، ووحدانيته، وقدرته، وغير ذلك من صفاته العُلَى، و مجيء وصف الرُّبوبيّة مضافًا إلى ضميرهم يُوحي بمعنى القُرْب والحُبّ، وكأنّهم قد اختُصوا بهذا الوصف وما يُوحي به دون غيرهم من المشركين المُعَرَّضِ بهم.

وقد جاء وصفهم منفيًا في قوله(تعالى):" لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا" للتّعريض بالمشركين الذين إذا ذُكِّرُوا بآيات الله خرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا، وأرى أنّ هذا التّعريض وإن أفاد ذمّ المشركين والتّشنيع عليهم فإنّه يفيد المبالغة في مدح (عباد الرّحمن) ؛ لأنّه كأنّه يجعل أمام المتلقِّي الطّائفتين متقابلتين، والضّد –كما يقولون– يُظهر حُسْنَه الضِّدُّ، فعباد الرّحمن يخرُّون لربّهم سُجّدًا وبُكيًّا والمشركون يخرُّون صُمًّا وعُميانًا!!! صورتان متناقضتان.وكأنّ الله(سبحانه) أراد أن يزيد صورتهم بهاءً وجمالًا من خلال التّعريض بصورة المشركين القبيحة.

والتّعريض يقضي بأنّه إذا كان هذا الوصف منفيًّا عن (عباد الرّحمن) فإنّه ثابتٌ للمُعَرَّض بهم، وهم المشركون، فكأنّ النّظم الجليل يُقرّر أنّ المشركين إذا ذُكِّرُوا بآيات ربّهم خرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا.

و الخُرُور: هو السُّقوط على غير نظام وترتيب [1]، وسُمِّي بذلك لأنّه سقوطٌ يُسمع منه خريرٌ، والخَرِيرُ يُقال لصوت الماء، والرّيح، وغير ذلك مما يسقط من عُلوٍّ، واستعمال الخرّ في قوله (تعالى):"خَرُّوا له سُجّدًا" تنبيهٌ على اجتماع أمرين: السُّقوط، وحصول الصّوت منهم بالتَّسبيح، وقوله بعده:" وسبّحوا بحمد ربهم"تنبيهٌ على أنّ ذلك الخَرِيرَ كان تسبيحاً بحمد الله لا بشيءٍ آخر"[2]

وقد أشار شيخناالأستاذ الدُّكتور محمد أبو موسى إلى أنّ هذه الصّيغة من مبتكرات القرآن؛ فقال:" وأحسب أنّ هذه الكلمة من الصّيغ التي فتح القرآن لها معناها؛ لأنّي لا أعرف هذه الكناية في كلام الجاهليين، وأظنُّ أنّ قول رسول الله(ﷺ) :"ومَثَلُ مَنْ لم يرفع بذلك رأسًا" مُقْتبسٌ منها، وفي الآية شيءٌ ليس في الحديث، وهو ذكر الخُرُور المصحوب بالصّمم والعمى، وهو أردأ السُّقوط وأبشعه".[3]

وقد تعدَّدت أقوالُ المفسرين في فهم قوله (سبحانه):" لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا" فمنهم من حمل الخُرُور على الحقيقة، ومنهم من حمله على الاستعارة، ومنهم من حمله على الكناية، ومنهم من قصر النّفي على القَيْد-الحال- دون الفعل، ومنهم من جعله شاملًا للفعل والقَيْد.

فكلام الطّبري، والزَّمخشري، والبيضاوي، وأبي السُّعود، وغيرهم

([1])يُرَاجع: المحرّر الوجيز ج ٤ص٢٢٢، والبحر المحيط ج٦ص ٤٧٣، وروح المعاني ج١٩ص٥٢، و فتح القدير ج٤ ص٨٩ .

([2])مفردات غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني، مادة: خرّ.

([3]) دلالات التّراكيب ص٣٧٥.

يُوحي بأنّ الخُرُور كناية عن الانكباب والإقبال علي الآيات "والمعنى : أنّ (عباد الرّحمن) إذا ذُكِّرُوا بها أَكَبُّوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المُذكِّر بها، وهم في إكبابهم عليها سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيونٍ راعية، لا كالذين يُذَكَّرُون بها؛ فتراهم مُكبِّين عليها مُقْبِلين على من يُذكِّرُ بها، مُظْهِرين الحرص الشَّديد على استماعها، وهم كالصُمِّ العُمْيَان حيث لا يعونها ولا يتبصَّرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم ".[1]

وذكر الطّاهر بن عاشور(رحمه الله) أنَّ الخُرُور"استُعير لشدَّة الكراهية والتَّباعد بحيثُ إنّ حالهم عند سماع القرآن كحال الذي يَخِرُّ إلى الأرض؛ لئلا يرى ما يكرهُ، بحيثُ لم يَبْقَ له شيءٌ من التَّقَوُّم والنُّهوض، فتلك حالةٌ هي غايةٌ في نفي إمكان القَبُول، ومنه استعارةُ القُعُود للتَّخَلُّف عن القتال، وفي عَكْس ذلك يُسْتَعَارُ الإقبالُ وَالتَّلَقِّي والقيامُ للاهتمام بالأَمْر والعناية به." [2]

ولا أميل إلى هذا القول؛ لأنّ فيه بعدًا وتكلُّفًا، كما أنّ قوله (تعالى) في شأن يوسف(ﷺ):﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً ﴾[3] وقوله في شأن أولي العلم:﴿ قُلْ آمِنُواْ بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُواْ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً۞ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ

([1]) يُرَاجع : تفسير الطّبري ج ١٩ ص٥١،و الكشّاف ٣ص٣٠١والبيضاوي ج٤ ص٢٢٩ ، وتفسير أبي السُّعود ج ٦ ص٢٣١.

([2]) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٨١.

([3])سورة يوسف/١٠٠.

خُشُوعاً ﴾[1] يَنْقُضُ ذلك؛ إذ لا يمكن أن يكون الخُرُور- إن حملناه على الاستعارة- استعارةً لشدّة الكراهية.

كما ذكر الطّاهر أيضًا أنّه يجوز أن يحمل الخُرُور على الحقيقة ؛فقال:" ويجوز أَنْ يكون الخُرُور واقعًا منهم أو من بعضهم حقيقةً؛ لأَنَّهم يكونون جُلُوسًا في مُجْتمعاتهم ونَوَاديهم فإذا دعاهم الرَّسول (ﷺ) إلى الإسلام طأطأوا رؤوسهم، وقَرَّبُوها من الأرض؛ لأَنَّ ذلك للقاعد يَقُوم مَقَامَ الفِرَار، أو سَتْرِ الوجه، كقول أَعْرَابِيٍّ يَهْجُو قوما من طَيء، أَنشَدَه المُبَرِّدُ:

إِذَا مَا قِيلَ أَيُّهُمْ لِأَيٍّ تشابهت المناكب والرؤوس[2]

وقريبٌ من هذا المعنى قوله تعالى حكاية عن قوم نُوحٍ:"وَاسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبارًا"[3]، وتَقَدَّم الخُرُور الحقيقِيُّ في قوله (تعالى): "يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا"[4] في سورة الإسراء ، وقوله: "فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ"[5]، وقوله: "وَخَرَّ مُوسى صَعِقًا"[6] في

([1]) سورة الإسراء/١٠٧-١٠٩.

([2]) نسبه المبرِّدُ في الكامل إلى أعرابيٍّ يهجو رجلًا من طيء ج١ ص ٢٧٨، وهو موجود في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (طبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنشر القاهرة ١٩٦٧م)ص١١٨٤.والبرصان والعرجان للجاحظ تحقيق الدُّكتور محمد مرسي الخولي(الطَّبعة الأُولى ١٩٧٢م) ص٢٦٢.

([3]) سورة نوح/٧.

([4]) سورة الإسراء/١٠٧.

([5]) سورة النَّحل/٢٦.

([6]) اسورة الأعراف/١٤٣.

في الأَعراف "[1]

ومن كلام العلامة ابن عاشور في الاحتمالين السّابقين يُلحظ أنّه قد ركّز في تحديد وجه دلالة قوله تعالى:"لم يخرُّوا" على المُعَرَّض بهم- وهم الكُفَّار-دون الموصوفين وهم (عباد الرَّحمن) بينما الأمر فيه تفصيلٌ، ويحتاج إلى دقّةٍ ورويّةٍ، ومراجعةٍ لسياقات أخرى جاء فيها هذا الفعل .

ذلك أنّ الخُرُور في حقّ الموصوفين -وهم عباد الرّحمن- حقيقةٌ؛ لأنّه وقع منهم وثبت لهم بصورةٍ مؤكّدةٍ في سورة الإسراء، في قوله (تعالى):"ويَخِرُّون للأذقان سجدًا"، وفي التّعبير به مبالغةٌ في تأثير التّذكير بهم، أما المُعَرَّضُ بهم -وهم الكافرون- فلا يمكن أن يكون الخُرُور منهم على الحقيقة؛ لأنّ الحق (سبحانه) قال في حقهم:" وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً"[2] ، وإنّما هو كناية عن حرصهم على الإقبال عليها، وقد ذكر حرصهم بلفظ الخُرُور على المشاكلة؛ إذ أُسْنِد إليهم مشاكلةً لفعل المؤمنين لوقوعهم في صُحْبتهم.

فالمؤمنون يَخِرُّون سُجّدًا وبُكيًّا، والكافرون يقبلون صُمًّا وعُميانًا، والخُرُور من المؤمنين حقيقة، ومن الكافرين كناية عن إقبالهم، وقد عبّر به مشاكلة لفعل المؤمنين على سبيل السُّخرية والتَّهكم.

والنّفي بناء على ذلك إمّا أن يكون مُنصبًا على القَيْد- وهو الحال-

---

([1]) التَّحرير والتَنوير ج١٩ ص٨١.

([2]) سورة الفُرْقان/٦٠.

دون المقيَّد –وهو الفعل– ، وقد ذهب إلى ذلك جمعٌ من العلماء منهم الزَّمخشري، والبيضاوي، وأبو حيَّان، وأبو السُّعود، والألوسي، وغيرهم؛ قال الزَّمخشري:""لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا " ليس بنفي للخُرُور . وإنّما هو إثباتٌ له ، ونفي للصّمم والعَمَى ، كما تقول : لا يلقاني زيدٌ مُسلِّماً ، هو نفي للسّلام لا للقاء . ".[1]

وإمّا أن يكون مُنصبًا على الفعل وقيده كما أوحى به كلام ابن جرير الطَّبري. [2]، وقد اختار الطّاهر بن عاشور(طيّب الله ثراه) هذا الوجه وقوّاه، وبيّن أنّه كثيرٌ في الكلام وأنّه أوجه من الوجه الآخر، وعقَّب على الوجه الآخر بأنّه ضعيفٌ؛ لأنّه إنّما يليق لو كان المُعرَّضُ بهم منافقين، وكيف والسُّورة مكية، والمشركون كانوا يُعْرِضون عن تلقِّي الدّعوة عَلَنًا، قال (تعالى):﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا القُرْآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [3] وقال:﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾. [4]

لكنّي أميل إلى ما اختاره الزَّمخشري– وتبعه عليه جمهور العلماء– وهو ثبوت الخُرُور لعباد الرّحمن على الحقيقة أو الكناية ونفي الصّمم والعمى عنهم، وذلك لأنّ تسلُّطَ النّفي على القيد هو الأكثر

([1]) الكشّاف ٣ص٣٠١ .

([2]) يُرَاجع: تفسير الطّبري ج١٩ ص ٥١،

([3])سورة فُصِّلت/٢٦.

([4])سورة فُصِّلت/٥. ويُراجع التّحرير والتَّنوير ج١٩ص ٨١.

في لسان العرب كما قال أبو حيَّان.[1]

والمعنى على ذلك: لم يَخِرُّوا عليها في حالةٍ كالصَّمَمِ والعَمَى ولكنَّهم يَخِرُّون عليها سامعين مُبْصِرين، فيكون الخُرُور إما حقيقة كما ثبت في سورة الإسراء، وإما كناية عن الحِرْص على العمل والإقبال عليه، كَمَا يُقَال:أَكَبَّ فلان على كذا، أَيْ صَرَف جُهْدَه فيه، فيكون التَّعريض بالمشركين في أَنَّهم يُصَمُّون ويُعْمَوْن عن الآيات ومع ذلك يَخِرُّون على تَلَقِّيها تَظَاهُرًا منهم بالحرص على ذلك، وخرورهم كناية عن إقبالهم على الآيات وحرصهم عليها ، وقد عبر بالخُرُور مشاكلة لفعل المؤمنين.

وما ذكره الطّاهر من أنّ هذا الوجه ضعيف لا أميل إليه ؛ لأنّ النّظم الجليل أثبت للكافرين الخُرُور مشاكلة لفعل المؤمنين على سبيل التّهكم، وهو كناية عن حرصهم وإقبالهم على القرآن، وهذا قد حدث منهم فعلًا ، ولكنّه ليس بدافع الإيمان، وإنما بدافع الطّعن فيه، وبعضهم قد أثّر فيه القرآن ولم يتمالك نفسه فاعترف بهذا الأثر، وقد سجّل التّاريخ شهادة بعضهم للقرآن، منها قول القائل :"إنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة". [2]

على أنّ الخلاف في توجُّه النّفي يُبْنَى على عَوْد الضّمير في قوله "عليها" إلى الآيات، أما إن اعتبرناه عائدًا إلى المعاصي المدلول عليها

([1])يُرَاجع: البحر المحيط لأبي حيّان ج٦ص ٤٧٣.

([2]) بيان إعجاز القرآن للخطَّابي – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق محمد خلف الله أحمد ود. محمد زغلول سلّام(طبعة دار المعارف بمصر ط خامسة)ص٢٨.

باللَّغو في قوله:"وإذا مرُّوا باللَّغو"[1]فالنّفي للفعل والحال عند الجميع، والمعنى:إذا ذُكِّروا بآيات ربّهم المتضمنة للنّهي عن المعاصي والتّخويف لمرتكبها لم يفعلوها، ولم يكونوا كمن لا يسمع ولا يبصر[2]، فالنّفي مُسَلّطٌ على الفعل المقيد والقيد معًا.

إذًا فمحطُّ الفائدة في قوله (تعالى):"والذين إذا ذُكّروا بآت ربّهم لم يخروا عليها صُمًّا وعُميانًا" هو هذا القيد" صُمًّا وعُميانًا"، فهما حالان من الضّمير في قوله :"يخِرُّوا" ، منفيان عن (عباد الرّحمن)، ثابتان للكُفّار المُعرَّضِ بهم على وجه التّشبيه، أي يخِرُّون على الآيات–إن عاد الضّمير في "عليها" إلى الآيات– أو المعاصي –إن عاد إلى المعاصي– كالصُمّ والعُميان في عدم السَّماع والرُّؤية، ويُفيد هذا التّشبيه مدح "عباد الرّحمن"والثّناء عليهم بأنّهم يخرُّون على آيات ربّهم أو يُقبلون عليها سامعين مبصرين، كما يفيد غاية الذّم للكافرين؛ بأنّهم كالصّم والعُمْيان، وليس هناك أكثر ذماً من أن يُوصف الإنسانُ بتعطيل حاستيْ السّمع والبصر، وإن كان يملكهما. وفيها أيضًا تنديدٌ وتقريعٌ للكافرين؛ لأنّهم صمٌّ بكمٌ عميٌ لا ينتفعون بما يقرءون، ولا يعتبرون بما يُشاهدون، ولا يتجاوز آذانهم ما يسمعون.

---

(1) يُرَاجع:البيضاوي ج١ص ٢٢٩، وتفسير أبي السُّعود ج٦ص٢٣١.

(2) روح المعاني ج١٩ص٥٢.

الصّفة الثّانية عشرة:

الابتهال إلى الله (سبحانه).

وفي خاتمة هذه الأوصاف يقول الحقُّ(سبحانه) في الخبر الثّامن لعباد الرَّحمن:﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾[1] والظّاهر من ذلك أنّه يُثنى عليهم بأنّهم يبتهلون إلى ربّهم بأن يزيد عَدَدَهم، وأن يجعلهم أئمةً لغيرهم.

لكنّ الّذي يتأمّل هذا القول المبارك يُدرك أنّه يتضمن المدح بأكثر من صفة لهم على وجه الاستتباع، وأوّل ما يلقانا من ذلك وصفهم بالابتهال إلى الله (سبحانه وتعالى) ودعائه عند الحاجات، ومن المعروف والمسلم به أنّ الدُّعاء من أجلّ العبادات وأشرفها؛ وذلك أنّه متضمَّنٌ في معظمها؛ إذ فيه "إظهارُ العبدِ العجزَ والاحتياجَ من نفسه، والاعترافَ بأنّ الله(تعالى) قادرٌ على إجابته، كريمٌ لا بخلَ له ولا فقرَ، ولا احتياجَ له إلى شيءٍ، حتى يدّخر لنفسه ويمنعه من عباده، وهذه الأشياء هي العبادة، بل مخّها"[2] أي خالصها. لأنّ مُخّ الشَّيء خالصه، وإنمّا كان مُخُّها لأمرين:

الأوّل: أنّه امتثالٌ لأمر الله؛ حيث قال "ادْعُونِي"

الآخر: أنّ الدّاعي إذا علم أنّ نجاح الأُمور من الله انقطع عمّا سواه، وأفرده بطلب الحاجات وإنزال الفاقات، وهـــذا هو مراد الله

([1]) سورة الفُرْقان/٧٤.

([2])تحفة الأحوذي للمباركفوري (دار الكتب العلمية، بيروت)ج٩ص٢٢٠.

من العبادة. [1]

ولذلك كان سيدنا رسول الله(ﷺ)يعلم أصحابه الدُّعاء، ويحضُّهم عليه ويأمرهم به؛ وكان بعض السّلف "يُواظب على حِزْبه من الدُّعاء، كما يُواظب على حِزْبه من القرآن"[2]

وقد ورد عنه (ﷺ) أحاديث كثيرة تُبيّن فضل الدُّعاء وقيمته؛ منها ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن النُّعمان بن بشير أنّ رسول الله (ﷺ) قال:"إنّ الدّعاء هو العبادة" ، ثم قرأ:﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]

و ما رواه التِّرمذي عن أنس قال رسول الله(ﷺ):"الدُّعاء مخُّ العبادة"[4]، وما رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال:" ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدُّعاء"[5]، وما روي عن

([1])سُبُل السَّلام للصّنعاني(مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط رابعة ١٢٧٩هـ=١٩٦٠م) ج ٤ص ٢١٨.

([2])التّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لأبي عمر يوسف بن عبد الله القُرْطبي تحقيق مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري ج ١٠ص ٣٠٠.

([3]) سورة غافر/٦٠، ومسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين ج٣ ص٢٩٨.

([4]) سنن التّرمذي تحقيق أحمد محمد شاكرج٥ص٤٥٦، وبلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ج١ص٥٩٩.

([5]) مسند الإمام أحمد ج١٤ص ٣٦٠، وبلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني ج١ص٥٩٩.

أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺقال:"أشرف العبادة الدُّعاء"[1]، وغير ذلك كثير من الأحاديث التي تُثبت قيمة الدُّعاء في العبادة، و بالتأمّل في الحديث الأَوّل من هذه الأحاديث، وهو قوله (ﷺ):" إنّ الدّعاء هو العبادة" نقف على مغزى أسلوب القصر الذي صيغ به الحديث؛ إذ جاء بضمير الفصل والخبر المعرف باللام ليدل على الحصر مبالغة[2]، وهو يُوحي بأنّ الدُّعاء ليس وراءه عبادةٌ، بل هو العبادة الكاملة التي لا تُساميها عبادة أخرى، ويُؤكِّد لنا ذلك وضع الحق (سبحانه) قوله:"عن عبادتي" في الآية التي استشهد بها سيدنا رسول الله (ﷺ) موضع دعائي؛ لأنّ الموضع موضع ذكر الدّعاء بقرينة السِّياق.

إذًا فأوّل شيءٍ يُمدح به (عباد الرّحمن) في هذه الآية، هو لجوؤهم إلى ربّهم، وقيامهم بهذه العبادة الجليلة، وهي عبادة الدُّعاء؛ ولأهميتها جعلتها عنوانًا لهذه الصّفة ، وأساسًا يُبْنَى عليه ما تضمنه دعاؤهم.

وإذا كان النَّظم الجليل يمدحهم بالالتجاء والابتهال إلى الله(سبحانه) في طلب الحاجات، فإنّ دعاءهم الذي حكاه القرآن في هذه الآية يتضمَّن مدحهم والثّناء عليهم بصفتين أُخريين، هما:

الأُولى:رغبتهم في انتشار الإسلام وتكثير اتباعه، وهذه مستفادة من دعائهم الله(عزّ وجل) أَنْ يرزقهم أزواجًا وَذُرِّيَّات تَقَرُّ بِهِمْ أَعْيُنُهُمْ في قولهم :" ربَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرّيّاتنا قرة أعين"، "فإنّ (عباد

([1]) كنز العمَّال في سُنَن الأقوال والأفعال لعلاء الدِّين الهندي البرهان فوري تحقيق بكري حياني وصفوة السَّقا(مؤسسة الرِّسالة ط خامسة ١٤٠١هـ=١٩٨١م) ج٢ص ٦٢.

([2]) يُرَاجع:تحفة الأحوذي للمباركفوري ج٩ص٢٢٠.

الرّحمن) لا يكفيهم أنّهم يبيتون لربّهم سجدًا، وقيامًا ؛ وأنّهم يتَّسِمُون بتلك السِّمات العظيمة كُلِّها، بل يرجون أن تَعْقُبهم ذريةٌ تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواجٌ من نوعهم؛ فتقرّ بهم عيونُهم، وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بهم عدد (عباد الرّحمن)، وهذا هو الشُّعور الفطري الإيماني العميق:شعور الرّغبة في مضاعفة السّالكين في الدَّرب إلى الله ، وفي أوّلهم الذُّرّية، والأزواج، فهم أقرب النّاس تبعةً، وهم أوّل أمانة يُسأل عنها الرجالُ " [1]

الأُخْرَى: أنّهم يرجون أن يجعل اللهُ منهم قدوةً طيبةً للّذين يتّقون الله ويخافونه، وذلك في قولهم:" واجعلنا للمتّقين إمامًا" ولا يُظنُّ أنّ هذا الطّلب للاستعلاء والرِّياسة؛ لأنّ الركب كُلّه في طريق الله.

على أنّ طلبهم أن يكونوا قُدوةً للمتّقين، يقتضي على وجه الاستتباع أنّهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدَّرجات العظيمة من التَّقوى؛ لأنّ القُدْوة يجب أن يكون بالغًا أقصى غاية العمل الذي يرغب المُهْتَمُّون به الكمالَ فيه، وهذا يقتضي أيضًا أنّهم يسألون أن يكونوا دُعاةً للدُّخول في الإسلام وأن يهتدي النّاس إليه بواسطتهم[2]

و هذه الأوصاف التي مدحهم الله بها جاءت في أسلوبٍ مُحْكَمٍ مُعْجِزٍ، زاخرٍ بالدّلالات مُفْعَمٍ بالأسرار التي تناسب مقام المدح وسياقه، فقوله (سبحانه) في شأن (عباد الرَّحمن):" والذين يقولون" والواو عاطفة، وهذا العطف يُوحي بأنّ هذه صفة أُخرى، تُغاير الصّفات

([1])في ظلال القرآن لسيد قُطْب(دار الشّروق، القاهرة وبيروت، ط العاشرة١٤٠٢هـ=١٩٨٢م) ج ٥ ص٢٥٨١ .

([2]) التَّحرير والتَنوير ج١٩ ص ٨١.

السّابقة، قد تميّز بها (عباد الرَّحمن) ، وقد بُنِيَت هذه الصّفة على الاسم الموصول"الذّين" ليُوحي ذلك باشتهارهم بهذه الصّفة وعراقتهم فيها، كما أنّه يُؤذن بأنّ ما ذُكِر في حيزه أوصافٌ جليلةٌ، لها شأنها العظيم، ومن ثمّ فهي حقيقة بأنْ يفرد لها موصوفٌ مستقلٌ، ولا يجعل شيءٌ منها تتمّة لغيرها. [1]

وآثر النّظم الجليل صيغة المضارعة في قوله (سبحانه):"يقولون" لاستحضار صورتهم الجميلة المؤثرة، وهم يبتهلون إلى ربّهم وسيدهم، كما أنّ ذلك يُوحي بأنّهم يقولون في الحال والمستقبل، وهذا ما يُطلق عليه البلاغيون اسم "الاستمرار التّجدُّديَّ"[2]، فحالهم كُلُّه ابتهال لله، وهم لا يحيدون عن هذا الشَّأن، فهو يتجدَّد آنا فآنا، وقد دلّت قرينةُ المدح على هذا الاستمرار.

وقوله:"ربَّنَا" شروعٌ في حكاية دعواتهم، والتّعرُّض لعنوان الرُّبوبية مع الإضافة إليهم للمبالغة في التّضرُّع والجُؤار، كما أنّ فيه استعطافًا لله (سبحانه)، وقولهم:"هب" يُوحي بقمّة الأدب والتّلطُّف في الطّلب ، وذلك لأنّهم جعلوا المطلوب هبةَ من الله، يكون بتفضُّله وإنعامه على عباده، من غير أن يجب عليه شيءٌ؛ فكأنّهم يقولون له: أعطنا من فضلك وكرمك، و هذا أدعى للإجابة .

وكأنّ الله الكريم بحكايته لدعائهم، وما ينطوي عليه من أدبٍ جمٍّ، يعلم عباده كيفية الدُّعاء والطَّلب منه سبحانه، وهذا – كما ذكر العلامة الألوسي– من غاية الكرم ونهاية الإحسان، يُعلّمهم الطّلب ليُعْطيَهم

([1])تفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣١ .

([2])جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع للسّيد أحمد الهاشمي ص٥٨ .

ويرشدهم للسُّؤال ليُثيبَهم ، ولذلك قال أبو الفتح البُسْتي:

يَا مَنْ غَدَا سَبَبِي حَتَّى عُرِفْتُ بِهِ حَسْبِي عُلاكَ إِلى نَيْلِ المُنَى سَبَبا

لَوْلَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُه مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمْتَنِي الطَّلبا[1]

و كِلا الجارِّين في قولهم" هب لنا من أزواجنا وذرّيّاتنا قُرَّة أُعين" متعلقٌ بـــ (هب)، وتقديم الأوّل منهما للاعتناء به وتشويقًا إلى الثّاني، و (مِنْ) فِي قَوْلِه: "مِنْ أَزْواجِنا..."، ذكر الزّمخشري أنّها "تحتمل أن تكون بيانية، كأنّه قيل : هب لنا قُرّة أُعين ، ثم بُيّنت القُرّة وفُسِّرت بقوله : مـــن أزواجنا وذرياتنا . ومعناه : أن يجعلهم الله لهم قرّة أعين ، وهو من قولهم : رأيت منك أسداً ، أي : أنت أسد، وأن تكون ابتدائية على معنى : هب لنا من جهتهم ما تقرّ به عيوننا من طاعة وصلاح"[2]

والقول بأنّها بيانية مبني على جواز مجيئها للبيان وجواز تقدم المُبَيِّن على المُبَيَّن[3]، وبالتّأمّل في الاحتمالين نجد أنّ المعنى على البيانية: أنّهم طلبوا أن يجعل أزواجهم وذرياتهم قُرَّة أُعين لهم، وعلى الابتدائية:طلبوا أن يجعل من جهتهم ما تقرُّبه عيونهم، وأرى أنّها على البيانيَّة أبلغ من الابتدائية؛ لأنّ القول بالابتدائية يقتصر على طلب أن ينشأ منهم ما تقرّ به الأعينُ، ولا يلزم من ذلك أنّ يكونوا هم قُرّة للأعين، أما القول بالبيانية فهو يُوحي من أوّل الأمر بأنّهم قُرةٌ للأَعين،

([1])روح المعاني ج٣ ص٧٠، والموسوعة الشعرية .

([2])الكشَّاف للزَّمخشري ج ٣ص ٣٠٢ .

([3])روح المعاني ج ١٩ص ٥٣ .

وما داموا كذلك فلن يصدر منهم إلا ما تقرّ به أعين المتقين، ومن هنا كان هذا القول أولى.

وهذا ما جعل العلامة الزمخشري- وهو الذَّوَّاقة- يبدأ بالقول بالبيانيّة، وإن لم يصرح بأنّه الأولى ، و لعلّ السّر في ذلك أنّه يرى أنّ الأصل في (مِنْ) أن تكون لابتداء الغاية ، وكونها مُبَعِّضةً في نحو أخذتُ من الدّراهم، ومُبيّنة في نحو :" فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ "[1] و مزيدة في نحو ما جاءني من أحدٍ راجع إلى هذا[2]

فهو(رحمه الله) يرى صناعةً أنّ الأصل في (مِنْ)أن تكون لابتداء الغاية، لكنّه لما تعامل معها بلاغيًا وجد أنّها تحتمل البيانيَّة، وأنّها الأنسب، ومن ثمّ قال به وقدّمه.

و أنكر فريقٌ من العلماء أن تكون(مِنْ) بيانيّة منهم أبو حيَّان؛ إذ يقول:"مِنْ التي لبيان الجنس لابد أن يتقدم المبيَّن، ثم يأتي بمن البيانيّة، وهذا على مذهب مَنْ أثبت أنّها تكون لبيان الجنس، والصّحيح أن هذا المعنى ليس بثابتٍ لمن"[3]

ووصف ابن هشام إنكار أن تكون لبيان الجنس بالتَّكلُّف في قوله"وأنكر مجيء (مِنْ) لبيان الجنس قومٌ، وقالوا هي في قوله"من

---

(1) سورة الحجُّ:٣٠ .

(2) يُرَاجع : شرح المفصل للزمخشري تأليف ابن يعيش(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط أولى ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م) ج ٤ص ٤٥٨ .

(3)البحر المحيط ج ٦ص ٤٧٦ .

ذهب" "ومن سندس"[1] للتّبعيض، وفي"من الأوثان" للابتداء، والمعنى فاجتنبوا من الأوثان الرّجس، وهو عبادتها وهذا تكلُّف[2]

ومن ثمّ قال المرادي:"ومجيئها لبيان الجنس مشهورٌ في كتب المعربين، وقال به قومٌ من المتقدمين والمتأخرين، وأنكره أكثر المغاربة"[3]، إذاً فحملها على البيانية لا شيء فيه لغويًا، وأرى أنه الأوفى بالمقام والسّياق بلاغيًا.

ولعلّ إيثارهم الدّعاء لأزواجهم وذرياتهم بأن يكونوا قُرَّة أعين ؛ لأنّ "المؤمن إذا شاركه أهله في طاعة الله سَرّ بهم قَلْبُه، وقَرَّتْ بهم عَيْنُه؛ لما يرى من مساعدتهم له في الدّين وتوقع لحوقهم به في الجنَّة"[4]

وتقديم الأزواج على الذُّريَّة في دعاء (عباد الرَّحمن) ؛ لأنّهنّ الأصلُ والسّببُ في استقامة الذُّرية وجعلها قُرّة أعين الآباء، وفيه إشارة إلى أنّ الزّوجة الصّالحة مَظِنّة أن تلد ولدًا صالحًا.

وذكر الطّاهر بن عاشور أنّ الجمع في قراءة الجمهور: "وَذُرِّيَّاتِنا"

([1])في قوله تعالى:" يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ" الكهف/٣١.

([2])مغني اللَّبيب تحقيق وشرح الدُّكتور عبد اللَّطيف محمد الخطيب(السِّلسلة التُّراثيّة ، الكويت) ج ٦ص ٤٧٦ .

([3])الجنى الدّاني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي تحقيق الدُّكتور فخر الدِّين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل(دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ط أولى ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م) ص ٣١٠، والبرهان للزّركشي ج٤ ص ٤١٨.

([4])البيضاوي ج٤ ص ٢٢٩ .

"مراعى فيه التَّوزيع على الطَّوائف مِنَ الَّذين يَدْعُونَ بذلك"[1]، لكنّي ألمح فيه رغبة منهم في امتداد هذه الدّعوة في أجيال متلاحقة منهم.

وقَرَأَهُ أبو عمرو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ، ويعقوبَ، وخَلَفٍ "وذُرِّيَّتِنا" بدون أَلف بعد التَّحْتِيَّة، ويُسْتفادُ معنى الجمع من الإضافة إلى ضمير الَّذين يقولون، أَيْ ذُرِّيَّةُ كُلِّ وَاحدٍ".[2]، وإفراد الذُّريّة في هذه القراءة يُوحي بأنّهم يَعْنُون الصّالحين من ذريتهم.

و قوله (عزّ وجلّ) :"قُرَّةَ أَعْين"كناية عن السُّرور والفَرَح، فقد طلبوا من الله أن يجعل أزواجهم وذريتهم سرورًا وفرحًا لهم، وقد ذكر علماؤنا أنّ أصله يحتمل أن يكون مأخوذًا من القُرّ، وهو البَرْد لأنّ دمعة السُّرور باردةٌ؛ ولذا يُقال في ضدِّه :أسخن الله (تعالى) عينه، وعليه قول أبي تمام :

فَأَمَّا عُيونُ العَاشِقِينَ فَأُسْخِنَتْ وَأَمَّا عُيونُ الشَّامِتِينَ فَقَرَّتِ[3]

وقيل : هو مأخوذٌ من القَرَار؛ لأنّ ما يَسرُّ يُقَرُ النَّظر به، ولا يُنظر إلى غيره، وقيل : في الضّد أسخن الله(تعالى) عينه، على معنى جعله خائفًا مترقّبًا ما يُحزنه ينظر يمينًا وشمالًا، و أمامًا ووراء، لا يدري من أين يأتيه ذلك، بحيث تسخن عينه لمزيد الحركة التي تُورث

([1])التّحرير والتّنوير ج١٩ ص ٨١ .

([2])المصدر نفسه ، الموطن نفسه.

([3])ديوان أبي تمَّام بشرح الخطيب التّبريزي تحقيق محمد عبده عزام (دار المعارف ،ط خامسة) ج١ ص ٣٠٠ .

السُّخونة[1]، وعقّب الألوسي على هذا القول بأنّ فيه تكلفًا. [2]

وهاتان الكلمتان على وجازتهما قد اختزلتا وراءهما كُلَّ ما يخطر بالبال من خيرٍ يتَّصل بالدُّنيا أو الآخرة ليتحقّق به المطلوب، وهو أن يكونوا "قُرَّة أعين"؛ ولذا فهما تستوعبان كُلّ ما قيل ويُقال في تفسيرهما، وأرى أنّ تحديد عطائهما وقصره على معنى واحدٍ يتّصل بالدُّنيا أو الآخرة، يتنافى مع عطاء القرآن الفيّاض.

وطريقة بناء هذه الكناية المُوحية "قُرّة أعين" تُضيف إلى ما أفادته الكناية أسرارًا أخرى تنسجم مع المقام والسّياق والغرض المسوق له النّظم الجليل؛ فقد نُكّرت فيه الأعينُ وقُلِّلت؛ فأمّا التّنكير فلأجل تنكير القرّة المفيد للتّعظيم؛ لأنّ المضاف لا سبيل إلى تنكيره إلا بتنكير المضاف إليه، وذلك ليكون السُّرور غير متناه ولا محدود؛ فكأنّهم يقولون :هب لنا سرورًا وفرحًا لا نهاية له، وقلّل الأعين؛ فقال (سبحانه)"أعين" وآثره على جمع الكثرة "عيون"؛ لأنّه أراد أعين المتّقين ، وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم، يدلُّنا على ذلك قوله (تعالى) :"وَقَلِيلٌ مّنْ عِبَادِىَ الشَّكُورُ"[3]، فتنكيرها للتّعظيم والتّقليل [4]

وممّا يجب التنّبه إليه أنّ الكناية في قوله (تعالى):" ربَّنا هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرّيّاتنا قرة أعين" مَبنيَّةٌ على مجازٍ مرسلٍ علاقته

---

(1)يُرَاجع: المحرَّر الوجيز لابن عطية ج٤ ص٢٢٢ ، والبحر المحيط ج٦ ص ٤٧٤.

(2)روح المعاني ج١٩ ص ٥٣.

(3) سورة سبأ/١٣.

(4) يُرَاجع الكشَّاف ج٣ص ٣٠٢، والبيضاوي ج٤ص٢٢٩،.

المسببية؛ إذ المعنى وفقهم إلى ما يتسبَّبُ عنه أن يكونوا قُرّة أعينٍ وقد عبر بالمسبّب، وهو قرة العين- سواء أكانت مأخوذة من القُرّ أم القرار- عن سّببه، ثم كني بهذا المعنى عن السُّرور والفرح.وهذا من تراكم الصُّور البيانية، وهو يُسْلِم إلى غزارة المعاني وتراكمها، وثراء الأساليب وامتلائها.

وقول (عباد الرّحمن) في نهاية ابتهالهم ودعائهم:" **واجْعَلْنَا للمُتّقِين إمَامًا**" يُوحي بأنّهم بعدما"سألوا التّوفيق والخير لأزواجهم وذريّاتهم، سألوا لأنفسهم بعد أن وفَّقهم الله إلى الإيمان أن يجعلهم قُدْوةً يَقْتَدي بهم المتّقون"[1]

وإمامة المتّقين منزلةٌ ساميةٌ لا يُعطاها إلا من أكرمه اللهُ ورضي عنه؛ لأنّها تعني أنّ من اتّصف بها قد بلغ في التّقوى والعمل مبلغًا يُؤهّله للاقتداء به.

ويُؤكّد ذلك قوله (تعالى) في شأن سيدنا إبراهيم وبنيه(عليهم السّلام)" وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا"[2] فقد مدحهم وأثنى عليهم بأنّ جعلهم قادةً في الخير وأئمة يهدون النّاس بأمره، ولولا أنّ لهذا مكانةً عاليةً لما مدحهم الله به، ولما امتنّ عليهم.

وخَصُّوا المتّقين دون النّاس بطلب إمامتهم؛ إمّا لأنّ إمامة النّاس لا تكون إلا لنبيّ كما قال (تعالى) لسيدنا إبراهيم (عليه السَّلام):" قَالَ إِنِّي

---

(1)التّحرير والتّنوير ج١٩ ص ٨١ .

(2) سورة الأنبياء / ٧٣.

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"[1] ولداود –(عليه السّلام)–:" يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ"[2]، وإما تواضعًا وطلبًا للأجر والثّواب، كما هو شأن إمامة التّقوى في إفادة التّواضع والسّكينة والحصول على الأجر العظيم؛ إذ إنّ الإنسان له أجره وأجر من اهتدى به فعمل بعمله، كما قال سيدنا رسول الله (ﷺ):"من سنّ سُنّةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة..." [3]، وإمّا أن يكون من باب قول النّبي(ﷺ):"إذا سألتم الله (عزّ وجلّ) فاسألوه الفردوس الأعلى"[4]؛ ولذا فقد طلبوا إمامة المتَّقين، وهم صفوة الخلق، وعلى أيّة حال فإنّ في جعل المقتدين متقين إشارةً إلى علوّ درجة الإمام[5]؛ لأنّ هذه الإمامة من الدّرجات التي لا تعلوها إلا درجة النُّبوة.

---

(1) سورة البقرة / ١٢٤.

(2) سورة ص / ٢٦.

(3).رواه الإمام مُسْلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله في باب من سَنَّ سُنّة حَسَنةً أو سيئةً تحت رقم(٦٩٧٥)(دار الجيل ، بيروت)ج٨ص٦١، والإمام أحمد في مسنده تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين ج٣١ ص٥٣٦

(4) صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان عن أنس بن مالك، تحقيق شعيب الأرنؤوط(مؤسسة الرسالة، بيروت ،ط ثانية ١٤١٤هـ=١٩٩٢م) ج٣ ص٢٣٨.والمعجم الكبير للطّبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السَّلفي(مكتبة العلوم والحكم الموصل ط ثانية ١٤٠٤هـ= ١٩٨٢م)ج٣ص٢٣١.ومعرفة الصَّحابة لأبي نعيم الأصبهاني (موقع المكتبة الشَّاملة) ج٦ص٤٥.

(5)فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب للطّيبي دراسة وتحقيق عبد القدوس راجي موسى (رسالة ماجستير مخطوطة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، كلية القرآن الكريم قسم التّفسير، ١٤١٦هـ) ص ٥٢٠

والإِمامُ ما ائْتُمَّ به من رئيسٍ وغيرِه والجمع أَئِمَّة[1]، والدّاعون وهم (عباد الرَّحمن) جمعٌ، وقد طلبوا في دعائهم أن يكونوا للمتّقين إمامًا، وإمامًا –كما يبدو– مفردٌ، وهو غير متطابق مع ضميرهم لأنّه جمعٌ، ومن هنا فقد ذكر العلماء عدّة احتمالات أغلبها للتّأكيد على وجود المطابقة بينهما، وبعضها للعدول عنها لسرّ.

منها أنّ"إمامًا" يستعمل مفردًا وجمعًا كهجان، والمراد به هنا الجمع؛ ليطابق المفعول الأوّل لجعل، ومنها أنّه مفردٌ، وأُفرد مع لزوم المطابقة لدلالته على الجِنْس ولعدم اللّبس، كقوله (تعالى) :" ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً"[2]، فاسم الجنس يجوز إطلاقه على معنى الجمع مجازًا بتجريده من قيد الوحدة ، ومنها أنّه مفردٌ وأنّهم أرادوا اجعل كُلّ واحدٍ منا إماماً ، فالكلام على التّوزيع. أو أراد جمع آمّ–بمعنى قاصد– ، كصائم وصيام . أو أرادوا اجعلنا إماماً واحداً لاتحادنا واتفاق كلمتنا [3]

"وقيل: إنّ إمامًا مصدر يقال أمّ فلان فلانًا إمامًا مثل الصّيام والقيام، وهو لكونه موضوعًا للماهية شاملٌ للقليل والكثير وضعًا، فإذا نقل لغيره قد يراعي أصله"[4]

"وقال القفال وعندى أنّ الإمام إذا ذهب به مذهب الاسم وحّد، كأنّه قيل

([1]) اللّسان مادة:أمم

([2]) سورة غافر / ٦٧.

([3])الكشّاف ج٣ ص ٣٠٢، و المحرّر الوجيز ج٤ص ٨٣ ، والقُرْطبي ج١٣ ص٢٢٢ ، والبحر المحيط ج٦ص٤٧٤، ونظم الدُّرر للبقاعي ج١٣ص ٤٣٥، روح المعاني ج ١٩ص ٥٣.(بتصرف)

([4])تفسير البيضاوي ج٤ ص ٢٢٩.

اجعلنا حُجّةً للمتّقين ومثله البيِّنة يُقال هؤلاء بيِّنةُ فلانٍ، وقيل إنّه من الكلام المقلوب وأنّ المعنى واجعل المتَّقين لنا إمامًا و به قال مجاهد". (١)

وذكر الطّاهر بن عاشور احتمالاً آخر، هو أنه أُرِيدَ مِنْ إِمَامٍ مَعْنَاهُ الحَقِيقِيُّ وَجَرَى الكَلامُ عَلَى التَّشْبِيهِ البَلِيغِ(٢)، لكنّ مقام الدُّعاء يرفضه ويأباه؛ إذ كيف يطلبون شيئًا على التّشبيه؟!.

وعلى أيٍّ فإنّ النّظم الجليل قد آثر التّعبير بإمام على أئمة للإشارة إلى وجوب توحيد الإمام في الاجتماع للطّاعة؛ حتى تكون الكلمة في المتابعة واحدة، و "فيه إشارة إلى أنّ مرتبة الإمامة قليل عديدها"(٣)، كما أنّه أوفق بالفواصل السّابقة واللاحقة.

ولا يفهم دعاء (عباد الرّحمن) – كما قال النَّخعي –على أنّه طلبٌ للرّياسة، بل مجرد كونهم قُدْوةً في الدِين وعلماء عاملين؛ إذ قد سألوا الله أن يبلغهم في الطّاعة المبلغ الذي يُشار إليهم ويُقْتَدَى بهم. وقيل:في الآية ما يدل على أنّ الرّياسة في الدّين ممّا يَنْبَغِي أن تُطْلَب ويُرْغَب فيها (٤)

---

(١)تفسير القُرْطبي ج١٣ ص٨٣.

(٢) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٨١.

(٣)دلالات التّراكيب للدُّكتور محمد أبو موسى ص ٣٧٥.

(٤)يُرَاجع : الكشّاف ج٣ ص ٣٠٢.

جزاء من اتَّصف بصفات (عباد الرَّحمن):

ثم ختم الحقُّ(عزّ وجلّ) صفات (عباد الرَّحمن) ببيان جزاء من اتّصف بها، وذلك في قوله (تعالى):﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً ۞ خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقاماً ﴾[1]

وقد ذكرتُ في فاتحة البحث أنّ قوله (تعالى):"أولئك يجزون..." إما أنْ يكون خبرًا لقوله:"وعباد الرّحمن" وعليه فأسماء الموصول صفاتٌ له، وإما أن يكون استئنافًا بيانيًّا-مبتدأ وخبر- وعليه فأسماء الموصول خبر، وقد مِلْتُ إلى هذا القول ورجّحته وذكرتُ من أقوال العلماء ما يُؤيّده.

والسِّرُّ في إيثار هذا القول على القول الآخر أنّ فيه تشويقًا إلى معرفة جزاء (عباد الرّحمن) وبيانًا بأنّهم أحرياء به؛ لأنّ الحقَّ (سبحانه وتعالى) حينما أخبر عن (عباد الرَّحمن) بما ذُكر في حيز أسماء الموصول، شَوَّق إلى معرفة جزائهم، وكأنّ سائلاً سأل: ما جزاؤهم يا ربّ ؟ فقال (سبحانه):"أولئك ..." "والجملة مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب، مُبيِّنةٌ ما لهم في الآخرة من السَّعادة الأبدية إثر بيان ما لهم في الدُّنيا من الأعمال السَّنية"[2] ، فالجملتان بينهما شبه كمال اتصال؛ ولهذا فُصِلت الثّانية عن الأُولى.

وإذا كانت جملة(أولئك...) قد كشفت عن كُنْه جزاء (عباد الرّحمن)- بعد التّشويق إليه- وبيّنت أنّ منه ما هو ماديّ، ومنه ما

---

(1) سورة الفُرْقان/٧٥-٧٦.

(2) تفسير أبي السُّعود ج٦ ص٢٣٢ .

هو معنويّ، وأنّه دائمٌ لا ينتهي– فإنّها قد أوحت بمعاني أخرى ، تُسهم في تجلية هذا الجزاء، وتُضيف صفات مَدْحٍ أخرى إلى (عباد الرّحمن) بما يُرغِّب في اتّباع منهجهم واقتفاء أثرهم، وذلك من خلال دقائق أسلوبية وخصائص تعبيرية قد بُنيت بناءً معجزًا.

وأوّل ما يُطالعنا من ذلك إيثار تصدير هذا الجزاء باسم الإشارة(أولئك)، وهو للإشارة إلى المتّصفين بما فُصّل في حيّز صلة الموصولات الثّمانية من حيث اتّصافهم به، وهو يُوحي بأنّ ما قبله، وهم الموصوفون بتلك الصّفات من التَّخلِّي والتَّحلِّي، كانوا أحرياء بما ذُكِرَ من جزاء بعده بسبب ما ذُكِرَ قَبْلَه، وفيه دلالةٌ على أنّهم متميّزون بذلك أكمل تميُّز، منتظمون بسببه في سلك الأمور المشاهدة، وما فيه من معنى البُعْد للإيذان ببُعْد منزلتهم في الفضل[1]، فكأنّه قال: العالو الرُّتبة العظيمو المنزلة.

ومن قوله (تعالى):"يُجزون الغرفة بما صبروا" يتجلّى لنا ما أُعِدّ لعباد الرّحمن في الآخرة من نعيمٍ ماديٍّ، أي يجزون أعلى مكان في الجنّة بسبب صبرهم أو بدل صبرهم، وقد ربَط النظم الجليل هذا الجزاء بالصّبر وليس بالفعل ؛ إذ لم يَقُل (سبحانه) :بما فعلوا، ولعلّ ذلك لأمرين: الأوّل:الإيحاء بأنّ هذا الجزاء من فضل الله وكرمه وليس بناء على العمل؛ إذ من المقرّر أنّه لا يدخل أحدٌ الجنّة بعمله، وإنّما بفضل الله ورحمته.الآخر:إظهار قيمة الصّبر بين العبادات، وبيان أنّه وحده كفيلٌ بأنّ يدخل المتحلِّي به أعلى الدّرجات في الجنّة.

([1]) المصدر السّابق، الموطن نفسه .

و بُنِي الفعل"يُجْزَون" للمفعول؛ لأنّ غاية السّياق: هي بيان الجزاء، كما أنّ الفاعل–وهو الله (عز وجلّ)– معروفٌ؛ إذ لا فاعل لهذا الفعل غيره (تعالى). والغُرْفة: الدّرجة العالية من المنازل وكلُّ بناءٍ مرتفعٍ عال، وقيل هي اسم من أسماء الجنة. [1]

وأرى أنّ السّياق يُرشِّح المعنى الأوّل، أي: يثابون أعلى منازل الجنّة، والتّعريف في "الغرفة" للجنس، ومن ثمّ يستوي فيه المفرد والجمع، والمراد به هنا الجمع، أي يجزون الغُرَف من الجنّة، والدّليل على أنّ المراد منها هنا الجمع قوله (تعالى) في سياق "سورة سبأ" الذي يتحدَّث عمّن آمن وعَمِل صالحًا:" وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ"[2] بالجمع، وقد قرئ بالإفراد؛ فدلّت قراءة الجمع على أنّ المراد من الإفراد الجمع، وإيثار الجمع في"سبأ" –على ما قال الطّيبي– لأنّها رتَّبت على الإيمان والعمل الصالح، ولا خفاء في تفاوت النّاس فيهما، وعلى ذلك تتفاوت الأجزية، وههنا رتب على مجموع الأوصاف الكاملة؛ فلذا جيء بالواحد دلالةً على أنّ الغُرَف لا تتفاوت[3]

على أنّ التعريف في الغُرْفة وإن كان للجنس فإنّه أفاد التّعظيم لها؛ فكأنّه قال :يجزون الغرفة الكاملة العظيمة التي لا تُدانيها مكانةٌ أخرى، والسِّياق والمقام يناسبه الدِّلالة على المعنيين: الجمع و التّعظيم.

---

(1) المصدر السابق، و اللِّسان :مادة :غرف.

(2) سورة سبأ/٣٧.

(3) يُرَاجع:فتوح الغيب في الكَشْف عن قناع الرَّيب للطِّيبي دراسة وتحقيق عبد القدُّوس راجي موسى ص ٥٢٢.وروح المعاني ج٩ ص ٥٣.

و الباء في قوله (تعالى):"بما صبروا" تحتمل أن تكون للسّببية وأن تكون بمعنى بدل أيْ بدل صبرهم، وقد أشار إلى ذلك المفسرون[١]، فهما احتمالان قائمان، لكنِّي أميل إلى حملها على السّببية ؛ لأنّ البدل يعني جعلَ شيءٍ مكان شيءٍ آخر من غير أن يكون بينهما علاقةٌ، وأما السّببية فهي تعني أنّ الشّيء يُتوصَّل به إلى غيره، وعليه يكون بين الشّيئين اعتلاق قرابة. [٢]

ومن ثمّ فحَمْلُها على السّببية يجعلُ بين هذا الجزاء والصّبر اعتلاقَ قرابةٍ، وفي ذلك تعظيمٌ للصَّبر، وإظهارٌ لسببيّته في هذا الجزاء، وفي هذا تأكيدٌ لقوله (تعالى) في شأنه:" نَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ"[٣]،

وقد آثر التّعبير القرآني المجيء بـــ (ما) المصدرية قبل الفعل"صبروا" لإفادة التّعظيم والتّفخيم لهذا الصّبر الذي تحلّى به (عباد الرَّحمن)، "وَهُوَ صَبْرُهُمْ عَلَى مَا لَقُوا مِنَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَذًى، وَصَبْرُهُمْ عَلَى كَبْحِ شَهَوَاتِهِمْ لأَجْلِ إِقَامَةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، وَصَبْرُهُمْ عَلَى مَشَقَّةِ الطَّاعَاتِ"[٤].

وحذف النّظم الجليل مُتعلِقَ صَبْرِهم؛ ليشمل كُلّ هذه الأنواع وغيرها، وهذا ممّا يُسهم في تفخيم صَبْرِهم والمبالغة فيه.وكُلّ هذا

---

(١) يُرَاجع: البحر المحيط ج٦ ص٤٧٤ ، وروح المعاني ج ١٩ص٥٣.

(٢)المفردات للرَّاغب، واللّسان لابن منظور، مادتيْ:بدل وسبب.

(٣) سورة الزُّمر/١٠.

(٤) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٨٤.

يكشف عن سرّ الرّبط بين هذا الجزاء العظيم وصَبْرهم؛ إذ لابد أن يكون هو الآخر عظيمًا.

وهذه المبالغة في صَبْرهم أيضًا تُعرِّض بالمشركين الذين تعرَّض لهم سياقُ سورة الفُرْقان، وكشف عن جرائمهم في حقّ النّبي (ﷺ)، والدّعوة، والرّعيل الأوّل من (عباد الرّحمن)، وتُوحي بأنّهم صنعوا ما لا يُطاق في حقهم، لكنّهم صبروا، ومن ثمّ استحقوا هذا الجزاء العظيم.

ولما كان هذا النّعيم الماديّ- مهما كان حَجْمُه- لا يكمل ولا يَطِيب إلا بالكرامة والسّلامة، قال (سبحانه):"ويُلقّون فيها تحيةً وسلامًا"، وذلك على وجه الإكرام والتّعظيم لهم مكانَ ما أهانهم به عبادُ الشّيطان[1]، وهذا هو النّعيم المعنويّ الذي تفضّل الله به وأعدّه لعباد الرّحمن، وهو لا يقلُّ في عظمته عن النّعيم الماديّ الذي أعدّه لهم في الجنّة؛ حيث يُلقّون التّحية والإكرام من الله(جلّ شأنه) ومن ملائكته المقرَّبين، تخيّل أنت هذا النّعيم، اللهُ (عزّ اسمه) يُحييهم والملائكةُ كذلك، يا له من نعيم!!!

ويُلاحظ أنّ هذا الجزاء بشقيْه: الماديّ والمعنويّ، جاء في مقابل ما أعدّه الله للمشركين -عباد الشّيطان- في قوله (تعالى):" يَلْقَ أثامًا ويَخْلُدْ فيه مُهانًا"؛ فيَلْقَ أثامًا في مقابل الغُرْفة، ويَخْلُدْ فيه مُهانًا في مقابل ويُلَقَّون فيها تحيةً وسلامًا، وسوف يُضاف قَيْدُ الخلود في الآية التي بعدها، والضِّدُّ-كما يقولون- يظهر حُسْنَه الضِّدُّ.

([1]) يُرَاجع : نَظْم الدُّرر ج١٣ص٤٣٧.

على أنّه قد ورد في قوله (تعالى) :"ويُلَقَّوْن" قراءتان: الأُولى: قرأَ بها الجمهورُ، وهي: "وَيُلَقَّوْنَ" بضمِّ الياء وفتح اللام وتشديد القاف المفتوحة مضارع لَقَّاهُ إذا جعله لاقيًا، والأخرى: قرأَ بها حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ عن عاصمٍ وخلفٍ :"وَيَلْقَوْنَ" بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف المفتوحة، مضارع لَقِيَ. واللُّقِيُّ وَاللِّقَاءُ: استقبالُ شيءٍ ومُصادفَتُهُ[1]

وأرى أنّ قراءة الجمهور لإفادة التّكريم والتّعظيم ؛ لأنّها تُوحي بأنّ التّحية والإكرام يُلْقَيان عليهم من الله (تعالى) والملائكة بكثرة، ففيها أمران مُهِمَان:الأوّل أنّ التّحية والإكرام يُلقيان عليهم. الآخر: كثرة ذلك وعظمه، وهذا يدلُّ على شدّة الحفاوة والإكرام والمبالغة فيهما، و في القراءة الأُخرى أنهم يصادفون ذلك من غير ترقُّبٍ حفاوةً وإكراماً في استقبالهم.

وقوله (تعالى):"خالدين فيها" حال من ضمير (يُجْزَون) أو من ضمير (يُلَقَّوْن)، وقد أضاف هذا القَيْدُ صفة الخلود لعباد الرّحمن، فهم في هذا النَّعيم خالدون لا يموتون ولا يخرجون، والخلود نعمةٌ أخرى تُضاف إلى النّعيم السّابق بشقيْه: الماديّ، والمعنويّ؛ لأنّ أيّ نعيمٍ مهما كانت قيمته، إذا كانت له نهايةٌ أو كان للمُتَنَعِّم به نهايةٌ، فإنّ نهايته أو نهاية المتنعِّم تنغصان على المتنعِّم به، كما هو شأن الدُّنيا مع العبد، فهي متاعٌ، لكنّ فناءها ومَوْتَ العَبْد يُنغِّصَان متاعها.ومن ثمّ تفضّل الله (سبحانه) على (عباد الرّحمن) بأنّ نعيمه عليهم في الآخرة خالدٌ لا ينقطع ولا ينتهي.

([1]) التّحرير والتّنوير ج١٩ ص٨٤.

وبعد أنْ كشف النَّظم الكريم عن جزاء (عباد الرَّحمن) الذي شوَّف المخاطبين إلى معرفته والوقوف عليه، وحكمه عليه بأنّه خالدٌ لا ينتهي ولا ينقطع- عقّب (سبحانه) بقوله:"حَسُنَتْ مُسْتقرًا ومُقامًا" أيْ: حَسُنَت الغُرْفة مُسْتقرًا يستقرون فيه ومقامًا يقيمون به، وهذا في مقابل ما تقدّم من قوله (تعالى) في شأن عذاب جهنّم:"إنّها سَاءت مُسْتقرًا ومُقامًا "، ومن المعروف أنّ دور هذه المقابلة، يكمن في تمييز الأشياء بأضدادها، وإيضاح الفرق بين الأمرين.

وقد وقفتُ سابقًا مع قوله (تعالى)"مستقرًا ومقامًا" في قوله في عذاب جهنّم:" إنّها سَاءت مُسْتقرًا ومُقامًا "، وذكرتُ أقوال علمائنا في ذلك، ومِلْتُ إلى أنّهما بمعنى واحد، وجيء بالثانية للتّأكيد، وأرى أنّهما في قوله (تعالى) في شأن الجنّة:"حَسُنَتْ مُسْتقرًا ومُقامًا" للتّأكيد لا غير.

لكنّ الإمام الشّعراويّ (رحمه الله وأثابه) حاول التّفريق بين المستقر والإقامة، في شأن الجنّة كما فرّق بينهما جمعٌ من العلماء في شأن جهنّم، ورتّب عليه سؤالاً حاول الإجابة عنه؛ فقال:" و المُسْتَقر: مكان الإقامة العابرة غير الدّائمة، والمُقَام: مكان الإقامة الدّائمة، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنّة يُقيم فيها إقامة أبديّة دائمة، أما مَنْ يدخل النّار فقد يخرج منها، إنْ كان مؤمناً. فكيف قال عن كُلٍّ منهما: مُستقراً ومُقَاماً؟

قالوا: لأنّهم ساعةَ يأتيهم نعيم وجزاء نقول لهم: ليس هذا هو النّعيم الدّائم، فالمستقر في نعمة واحدة، إنّما المقام في نِعَم أخرى كثيرة مُترقّية مُستعلية، لدرجة أنّ الكمالات في عطاء الله لا

تتناهى".[1]، فهو يجعل المستقر للنّعمة الواحدة والمقام للنّعم الكثيرة، وأرى أنّ هذا تكلفٌ، والأَولى والأنسب أنّهما بمعنى واحد.

وقوله (تعالى) :"حَسُنَت مُسْتَقَرًا ومُقَامًا" لإنشاء المدح لحُسْن الجنّة مكانًا للاستقرار والإقامة، ومن المعروف أنّ صيغة (فَعُل) تفيد مع إنشاء المدح أو الذّم التّعجب، معنى هذا أنّ قوله:"حَسُنَت"لإنشاء المدح لحُسْن مُسْتَقَر(عباد الرّحمن) ومُقامهم في الآخرة والتّعجيب منه، وقد أفادت دلالتا المدح والتّعجيب المبالغة في حُسْن الغُرْفة وجمالها، وفي هذا تأكيدٌ لعظم جزاء (عباد الرّحمن) وترغيبٌ في سلوك مسلكهم.

ويُلاحظ أنّ قوله (تعالى):"إنّها سَاءت مُستقرًا ومُقامًا" احتمل أن يكون من الله أو من (عباد الرّحمن)، وهم يقولون ذلك عن علم، وأما قوله (تعالى) في مقابله:"حَسُنَت مُستقرًا ومُقامًا" فهو من الله (جَلّ وعلا)، وإذا صدر هذا من الله فلا وصف بعده ؛ لأنّه وصف الخالق، والله أعلم بأسرار كتابه.

([1])تفسير الشّعراوي ج١٩ ص٢٩٠٢.

المحور الثاني:
من ملامح الإعجاز في الآيات

تجلّى لنا من خلال تحليل آيات وَصْف (عباد الرّحمن) تحليليًا بلاغيًا يقف عند التّعبير القرآنيّ؛ ليستكنه أسراره – أنّ التعبير القرآني في القمة وأنّه مُعجزٌ، وقد حاولتُ قدر الطّاقة أنّ أُجلِّيَ بعض أسرار هذا الإعجاز في أثناء التّحليل، وفي هذا المحور أحاول إيضاح بعض الملامح التي أشرتُ إلى بعضها بصورةٍ مجملةٍ، وهي:

١ –مناسبة الآيات لما قبلها:

الذي يقف على مقصود سورة الفُرْقان وسياقها تتجلّى له مناسبة آيات وصف(عباد الرّحمن) لما قبلها من آيات السُّورة المباركة، ودقّة هذه المناسبة ومتانتها، ذلك أنّ مقصود هذه السُّورة هو إيناس النّبي (ﷺ) والتّسرية عنه، وهو يُواجه المشركين المعاندين الذين جنحوا عن الحقّ والهدى إلى الباطل والضّلال، والسُّورة قد صوّرت عنف المعركة التي كان يواجهها رسول الله (ﷺ)، وذكرت تطاولهم على الله (عزّ وجلّ)، والقرآن، والرَّسول(ﷺ)؛ فقد أساءوا الأدب مع الله﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾[1]، كما قالوا عن القرآن:﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا إِفْكٌ

(١) سورة الفُرْقان:٦٠.

افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾[1]و﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[2]، واعترضوا على طريقة تنزيله فقالوا:﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾[3]، وقالوا عن الرّسول(ﷺ):﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً۞أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَّسْحُوراً }الفرقان﴾[4]، وقالوا في سُخْرية واستهزاء:﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً﴾[5]

والسُّورة الكريمة تُسرِّي عن رسول الله(ﷺ) همَّه، وتُهوِّن عليه مشقة ما يلقاه من عنت القوم وسوء أدبهم، كما تُعزِّيه عن استهزائهم بتصوير المستوى الهابط الذي ينحدرون إليه ويتمرَّغُون فيه:﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً۞ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[6]، وقد وعده الله (تبارك وتعالى) أن يمدّه بالعون والمساعدة إذا ما جادلوه أو حاجُّوه:﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾[7]، ثم

---

(1) سورة الفُرْقان:٤.

(2) سورة الفُرْقان:٥.

(3) سورة الفُرْقان:٣٢.

(4) سورة الفُرْقان:٧-٨.

(5) سورة الفُرْقان:٤١.

(6) سورة الفُرْقان:٤٣-٤٤.

(7) سورة الفُرْقان:٣٣.

طلب منه الصَّبر على أذاهم، وتحمُّل عنتهم وتطاولهم عليه، والتَّوكُّل على ربّه القوي العزيز الذي يَغْلب ولا يُغْلب، ويَقْهر ولا يُقْهر، ويَنْصر أولياءه فلا يخزلهم، و التَّسلِّي والتَّأسِّي بإخوانه من الأنبياء والمرسلين﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ المُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾[1]﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾[2]

وعرضت السُّورة لمصارع بعض المكذبين أمثال المخاطبين؛ لتهديدهم بأن يَلْقَوْا مثلما لَقُوا؛ فذكرت طرفًا من قصص موسى، ونوح، وعاد، وثمود، وأصحاب الرسِّ، وما بين ذلك من قرون ، ثم هدَّدهم بقوله:﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾[3]

ولما عرضت السُّورة لجهالات الكُفَّار وطعنهم في القرآن والنُّبوة، وتطاولهم على الله (سبحانه وتعالى) وإعراضهم عن السُّجود له مع اطِّلاعهم على دلائل التّوحيد والقدرة الإلهية – ذكر عباده المؤمنين(عباد الرَّحمن) وأضافهم إلى نفسه تشريفًا لهم، وذكر صفاتهم التي أهَّلتهم لهذه الإضافة التي استحقُّوا من أَجْلها أعلى الدَّرجات في الجنَّة .

والحقُّ (سبحانه) قد أبرزهم في آياتٍ، وصفتهم بصفاتهم المميِّزة ، ومقوماتهم الخاصة، وكأنّما هم خُلاصة البشريّة في نهاية المعركة

---

(1) سورة الفُرْقان:٣١.

(2) سورة الفُرْقان:٥٨.

(3) سورة الفُرْقان:٢٧.

الطَّويلة بين الحقِّ والباطل، بين البشريّة الجاحدة والرُّسل الذين يحملون الهدى لهذه البشريّة، وكأنّما هم الثَّمرة الجنيِّة لذلك الجهاد الطّويل، والعزاء المريح لحملة الهدى فيما لا قبل لهم به من جحود وإعراض.

وكأنّ الله (سبحانه وتعالى) يقول لرسوله الكريم(ﷺ) لئن تجاهل المشركون اسم (الرّحمن) واستنكروه، فهاهم أولاء (عباد الرَّحمن) يعرفونه، ويعبدونه، ويسجدون له، ومن ثمّ استحقُّوا أن يكونوا عباده، وأن يُنْسبوا إليه، وأن يكون لهم الجزاء الأوفى﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً ﴾[1].

والحقُّ (سبحانه) حينما يُصوّر (عباد الرّحمن) بصفاتهم المميّزة، وسلوكهم في حياتهم، يُغري غيرهم بسلوك طريقهم، بل إنَّه يفتح باب التَّوبة على مِصْرَاعيْه لمن يرغب في أن يسلك طريق (عباد الرَّحمن).

وتختم السُّورة بتقرير هوان البشريّة على الله، لولا هذه القلوبُ الطائعةُ المستجيبةُ العارفةُ بالله في هذا القطيع الشَّارد الضّال من المكذبين والجاحدين...

وفي هذا الهوان تهوينٌ لما يلقاه منهم رسول (ﷺ) وهو يتّفق مع ظلِّ السُّورة وجوها ويتّفق مع موضوعها وأهدافها على طريقة التّناسق الفنِّي في القرآن. [2]

وقد أشار علماؤنا الأجلاء إلى مناسبة آيات وصف (عباد الرحمن)

---

(1) سورة الفُرْقان:٧٥.

(2) يُرَاجع :في ظلال القرآن لسيد قطب ج٥ ص٢٥٤٤وما بعدها.

لما قبلها من آيات السُّورة المباركة ؛ فقال أبو حيّان:"ولما تقدَّم ذكرُ الكُفّار وذمّهم جاء ذكر أحوال المؤمنين المتذكِّرين الشَّاكرين"[1] وذكر أبو السُّعود أنّها "كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان أوصاف خلّص عباد الرّحمن وأحوالهم الدُّنيويّة والأُخرويّة بعد بيان حال النّافرين عن عبادته والسُّجود له"[2]، الذين خذلهم بتسليط الشَّيطان عليهم، وأهانهم بأنَّه لم يُضِفْهم إلى اسمٍ من أسمائه لهوانهم عليه.

واستثمر البقاعي(رحمه الله) هذا الكلام في بيان المناسبة بين آيات وصف (عباد الرّحمن) وما سبقها من آيات السّورة، وحاول تعميق هذه المناسبة؛ فقال:"ويجوز أن يُقَال – ولعلّه أحسن– :إنّه (سبحانه) لما وَصَف الكفّار في هذه السُّورة بما وصفهم به، من الفظاظة والغلظة على النّبي (صلى الله عليه وسلم) ، وعداوتهم له، ومظاهرتهم على خالقهم، ونحو ذلك من جلافتهم، وختم بالذّكر والشّكر، وكان التّقدير: فعباد الشيطان لا يتذكرون ولا يشكرون، لما لهم من القسوة، عطف على هذا المقدر أضدادهم، واصفًا لهم بأضداد أوصافهم ، مبشرًا لهم بضدّ جزائهم فقال : وعبادُ الرَّحمن..." [3] وراح(رحمه الله) يقابل بين أوصاف هؤلاء وهؤلاء.

ومن هنا ندرك أنّ آيات وصف (عباد الرحمن) جاءت لتستكمل السُّورة أغراضها؛ لبيان المقابلة والمفارقة بين صنفين من العبيد.

([1]) تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان ج٦ ص٤٦٨.

([2]) تفسير أبي السُّعود ج ٦ص٢٢٨.

([3]) نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور لبرهان الدِّين البقاعي ج١٣ ص٤٢٠.

٢-بناء أوصاف (عباد الرَّحمن) على اسم الموصول.

تجلّى لنا من خلال الوقوف مع آيات وصف (عباد الرَّحمن) أنّ هذه الآيات بدأت من الآية الثَّالثة والسِّتين وانتهت بالآية السَّادسة والسّبعين، أي إنها استمرت على مدى أربع عشرة آية، منها آيتان صوّر فيهما الحقُّ (سبحانه) جزاءهم على صَبْرهم على تكاليف الإيمان والعبادة، وبقية الآيات وهي اثنتا عشرة آية، صوّر فيها (عباد الرَّحمن) ومقومات نفوسهم وحياتهم وسلوكهم، ومن اللافت للنّظر أنّ كُلّ أوصاف (عباد الرّحمن) في هذه الآيات جاء في إطار اسم الموصول، والعجيب أنّ مجيئها لم يكن بالعطف على صلة الموصول الأوّل، وإنّما بإعادته ثماني مرات، وكان يكفي ذكرها بطريق العطف.

و لعلّ السّرّ في ذلك أن مجيء هذه الأوصاف في حيز جملة الصِّلة يناسب السِّياق و المقام والغرض المسوق له النَّظم الجليل، ذلك أنَّ هذه الآيات جاءت لمدح (عباد الرّحمن) والتّعريض والنَّيْل من المشركين الّذين أنكروا معرفة (الرَّحمن) ورفضوا السُّجود له، وكُلّ هذا لتسلية سيدنا رسول الله (ﷺ)، والمجيء باسم الموصول يوحي بشهرتهم في هذه الأوصاف ومعرفتهم بها، فليست أوصافهم نادرة الوقوع منهم، وإنّما هم مشهورون بها لكثرة وقوعها منهم ، وهذا أنسب للمدح وأبلغ.

وذكر العلامة أبو السُّعود، وكذا الألوسي أنّ "إعادة الموصول في المواقع السَّبعة مع كفاية ذكر الصِّلات بطريق العطف على صلة الموصول الأوّل للإيذان بأنَّ كُلَّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ في حيز صلة الموصولات المذكورة وصفٌ جليلٌ على حياله، له شأنٌ خطيرٌ حقيقٌ

بأن يُفرَد له موصوفٌ مستقلٌّ، ولا يجعل شيءٌ من ذلك تتمة لغيره"[1]

٣- عطف الأوصاف بالواو

ومن اللافت للنظر أيضًا في عَرْض هذه الأوصاف أنّها قد عطفت بالواو، وكان يمكن أن تذكر بدونها لعدم التّناقض بينها، والأصل في الصّفات إذا لم يكن بينها تناقض ولم يكن المقصد المبالغة في الاتصاف بكُلّ واحدٍ منها أن تمرّ بلا عطف، فقوله (تعالى):﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾[2]، قد توالت الصّفات فيه بلا عطف، ماعدا صفتي الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر؛ فقد جاءت الواو بينهما لأنهما متضادتان ولا يجتمعان في وقت واحد، وقوله (سبحانه):﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً﴾[3] ، جاءت الصّفات فيه متوالية بلا عطف إلا"ثيبات وأبكارًا"، فقد عطفت"أبكارًا" على"ثيبات" لما بينهما من التضاد، وعدم الاجتماع في وقتٍ واحدٍ.

فالصّفات إذا لم يكن بينها تناقضٌ وكان الغرض منها بيان كمال اجتماعها في الموصوف جاءت بلا عطف، أما إذا كان بينها تناقض – كما سبق- أو كان الغرض منها بيان كمال اتصاف الموصوفين بكُلّ

---

(1) أبو السُّعود ج٦ص ٢٣١. وروح المعاني ج١٩ ص ٥٣.

(2) سورة التّحريم/٥.

(3) سورة التّحريم/٥.

صفةٍ منها على حدة، جاءت الواو لإفادة أنهم كاملون في كُلّ صفة على انفراد وباللُّزوم على الاجتماع، وعليه فذكر الواو بين صفات (عباد الرّحمن) يفيد أنهم كاملون في كلّ صفة على حدة.

قال العلّامة أبو السُّعود:"وتوسيط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنواني منزلة الاختلاف الذاتي[1] وقال البقاعي"وذكر هذه المعطوفات التي هي صفات بالواو، تنبيهاً على أنّ كلّ واحدةٍ منها تستقلُّ بالقصد لعظم خطرها ، وكبر أثرها"[2]

٤-عرض الأوصاف بصيغة الجمع

ومن الأمور اللافتة للنّظر أيضًا في عرض أوصاف (عباد الرّحمن) أنها جاءت جميعها بصيغة الجمع، ولعلّ هذا لأنّ هذه الآيات جاءت لوصف خُلّص عباده-وهم جمع- في مقابل هؤلاء الذين كفروا بالرّحمن ورفضوا السُّجود له، وكأنّ الحقّ (تبارك وتعالى) يُعطينا صورة للعبودية الحقَّة، ونموذجًا للذين اتّبعوا المنهج، وكأنّه (سبحانه وتعالى) يقول لنا: دعوكم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي، ونفذوا أحكامي وصدَّقوا رسولي.

كذلك تُوحي صيغة الجمع أنّ هذه الأوصاف معروفةٌ لكُلّ صاحب فطرةٍ نقيّةٍ وعقلٍ راجحٍ، وصارت كأنها سُنّةٌ تُتّبع، لا يشذُّ عنها إلا مُلوّث الفطرة، مأفون العقل.

---

(١) أبو السُّعود ج٦ص ٢٣١.

(٢)نظم الدُّرر ج١٣ص ٤٢٢.

٥-ترتيب الأوصاف

عرضت آيات وصف (عباد الرحمن) اثنتي عشرة صفة من صفاتهم الخاصّة، وقد تبيّن لنا أنّ بعضها يرتبط بالجوانب الاعتقادية، وبعضها يرتبط بالجوانب الأخلاقية، وبعضها يرتبط بالجوانب الاجتماعية، كما أنّ منها ما يتعلق بالفرد في ذاته، ومنها ما يتعلق به في علاقته بربِّه، ومنها ما يتعلَّق به في علاقته بالجماعة، وجميع هذه الصِّفات يُردُّ -كما ذكر القرطبي- إمّا إلى التّحلِّي وإمّا إلى التّخلِّي[١]

وقد بدأ الحقُّ(سبحانه وتعالى) هذه الصّفات بصفات التَّحلية وأردفها بصفات التّخلية، وربما أوهم الظَّاهر أنّ التّرتيب لو كان بالعكس لكان أولى؛ إذ إنّ الحقّ (تبارك وتعالى) قبل ذكر صفات التخلية الواردة في قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾[٢] قد نزَّه (عباد الرّحمن) عن الأمور الخفيفة ، فكيف يليق بعد ذلك أن يُطهّرهم عن الأمور العظيمة مثل الشّرك ،والقتل، والزنا؟! .

وقد حاول علماؤنا الأجلاء الكشف عن بلاغة التّرتيب القرآني وسرّه؛ فذكر الفخر الرازي أنّه(سبحانه) ذكر صفات التّخلية بعد ما ذكر صفات التّحلية؛ لأنّ الموصوف بما ذكر من صفات التّحلية قد يرتكب ما ذكر من صفات التخلية تديُّنًا؛ فبيّن (سبحانه) أن المكلَّف لا يصير بتلك

---

(١) القُرْطبي ج١٣ ص٨٣

(٢) سورة الفُرْقان/٦٨.

الخلال وحدها من (عباد الرَّحمن) حتى ينضاف إلى ذلك كونه مُجانبًا لهذه الكبائر.

ونقل (رحمه) عن الحسن وجهًا آخر ، هو التّنبيه على الفَرْق بين سيرة المسلمين وسيرة الكُفَّار، كأنّه قال: وعباد الرّحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهًا آخر، وأنتم تدعون، ولا يقتلون النَّفس التي حرَّم الله إلا بالحقّ، وأنتم تقتلون الموءودة ولا يزنون وأنتم تزنون. [1]

ولا أميل إلى ما ذكره الفخر؛ لأنّه بعيدٌ لا يُناسب مقام المدح و سياقه؛ إذ كيف يُتصوّر ممن تحلّى بأصول الطّاعات وأعلاها أن يرتكب هذه القبائح العظيمة تديُّنًا، أمّا ما نقله عن الحسن من أن المراد من نفي القبائح العظيمة بعد التّحلّي بهذه الصّفات العالية هو التّعريض بما كان عليه أعداء (عباد الرّحمن) من قريش وغيرهم، فأميل إليه وأراه الأوفق والأليق بالمقام والسّياق، وهو الذي تستريح له النّفس وتطمئن إليه؛ إذ لو لم يكن التّعريض مقصدًا أساسيًا للنّظم الكريم لم يكن هناك حاجة إلى نفي هذه القبائح بعد وصفهم بالصّفات السّابقة من حُسْن المعاملة وإحياء اللّيل بالصّلاة ومزيد خوفهم من الله(تعالى)؛ لظهور استدعائها نفي ما ذكر عنهم، فكأنّه قيل:والذين طهّرهم الله (تعالى)وبرّأهم(سبحانه)مما أنتم عليه من الإشراك، وقتل النّفس المحرمة كالموءودة ، والزّنا.

وقال الألوسي :"وجُوِّز أن يُقال في وجه تقديم التّحلية على التّخلية كون الأوصاف المذكورة في التّحلية أوفق بالعبوديّة التي جعلت عُنوان

([1]) التّفسير الكبير ج٢٤ص٩٦.

الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ومزيد الانقياد والخوف والاقتصاد في التَّصرُّف بما أذن المولى بالتَّصرف فيه، ولا يأبى هذا قصد التّعريض بما ذكر في التّخلية، ويُؤيّد هذا القصد التَّعقيب بقوله (عزّ وجلّ) ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾[1] أي: ومن يفعل ما ذُكِر يَلْقَ في الآخرة عقابًا لا يُقادر قدره"[2]

وما ذكره العلامة الألوسي جيّد و في غاية الدّقة؛ إذ إنّ البدء بصفات التّحلية يُناسب العنوان الذي أطلقه الحقّ(سبحانه) عليهم وهو (عباد الرّحمن)؛ لأنّ أوّل ما يتوقّع من (عباد الرّحمن)، هو التّحلّي بالصّفات الفاضلة، ولا يليق بمن أضافهم الرَّحمن إليه إضافة الاختصاص وذكرهم ووصفهم من صفات المعرفة والتّشريف وقوع هذه الأمور القبيحة منهم؛ حتى يمدحوا بنفيها عنهم لأنّهم أعلى وأشرف .والله أعلم بأسرار كتابه

([1])سورة الفُرْقان/٦٨.

([2]) روح المعاني ج١٩ ص٤٨.

الخاتمة

وبعد هذه الرّحلة الممتعة التي عشنا فيها مع هذه الآيات التي تستعرض الصّفات الخاصّة بعباد الرّحمن، إكمالًا للآيات السابقة عليها من سورة الفُرْقان؛ حيث كان المشركون المعاندون حينما يُذكر اسمُ الله «الرّحمن» يقولون وملء رؤوسهم استهزاءً وغرورًا «وما الرحمن»؟ ورأينا أنّ القرآن قد عرّف لهم «الرّحمن» في آيتين، هما:﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾[1]

ثم عرّف لهم «عباد الرّحمن» في أربع عشرة آية، وهي الآيات التي معنا، وقد ذكر لهم اثنتي عشرة صفة من صفاتهم الخاصّة، يرتبط بعضها بالجوانب الاعتقادية، وبعضها بالجوانب الأخلاقية، وبعضها بالجوانب الاجتماعية، بعض منها يتعلّق بالفرد، وبعض آخر بالجماعة، وهي أوّلا، و آخراً مجموعة من أعلى القيم الإنسانية.

نصل إلى نهاية المطاف لنسجّل أهم نتائج الدّراسة فيما يأتي:

١-مجموع آيات وصف (عباد الرّحمن)وجزائهم أربع عشرة آية، جاء وصفهم في اثنتي عشرة آية وجزاؤهم في آيتين.

٢-المراد بعباد الرّحمن في تلك الآيات إمّا أصحاب رسول الله(ﷺ)، وإما جميع المؤمنين المتّصفين بمضمون تلك الصّفات، وقد مِلْتُ إلى الثّاني لعمومه - إذ يدخل الأوّل فيه دخولًا أوليًّا- وإفادته

([1]) سورة الفُرْقان:٦١-٦٢.

التّرغيب في الاتّصاف بهذه الأوصاف.

٣-جاءت آيات وصف (عباد الرّحمن) لمقصدين أساسيين: الأوّل: مدحهم والثّناء عليهم. االآخر : التّعريض بمن أنكروا معرفة الرّحمن وأبوا السّجود له، وقالوا باستهزاء وسُخْرية: وما الرّحمن؟!

٤-وصف الله (عباد الرّحمن) في تلك الآيات باسم الموصول وصلته ثماني مرّات، وتضمّن ذلك اثنتي عشرة صفة، هي:التّواضع، والحِلْم، و التّهجُّد لربهم ليلًا، والخوف من عذاب الله، والاعتدال في الإنفاق، والتّنزُّه عن الشّرك، والتّنزُّه عن الزّنا، والتّنزّه عن القتل، والتّنزّه عن شهادة الزُّور، والإعراض عن اللّغو، والإقبال على الله والحرص على العمل بأوامره،والابتهال إلى الله.

وقد يدمج بعض العلماء بين صفتين أو ثلاث بينها مناسبة، فيقلّ العدد عن اثنتي عشرة صفة، كما أنّ بعضهم قد يأخذ التّسمية من الإثبات، وبعضهم يأخذها من النفي.

٥-جاءت كُلّ أوصاف (عباد الرّحمن) في آيات سورة الفُرْقان في إطار اسم الموصول بإعادته ثماني مرّات، وذلك لبيان شهرتهم في هذه الأوصاف، وهذا يناسب مقام مدحهم، والتّعريض بالمشركين الذين أنكروا معرفة الرّحمن ورفضوا السّجود له.

٦-عُطفت أوصافُ(عباد الرّحمن)بالواو- وكان يمكن أن تُذكر بدونها لعدم التّناقض بينها، وذلك لبيان أنّهم كاملون في كُلّ صفةٍ على حِدَة، و هذا ممّا يُناسب السّياق والمقام.

٧-عُرضت هذه الأوصاف بصيغة الجمع لبيان أنّها معروفةٌ لكُلّ صاحب فطرة نقيّة وعقلٍ راجحٍ، وكأنّها سُنّةٌ تُتّبع.

٨-بُدئت صفاتُ (عباد الرّحمن) في تلك الآيات بصفات التّحلية و أُردفت بصفات التّخلية، وذلك لإفادة التّعريض بالكافرين الذين تعرّض لهم سياق السّورة.كما أنّ أوصاف التّحلية أوفق بالعبودية التي جُعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية، ومزيد الانقياد، والخوف، والاقتصاد في التّصرُّف بما أذن المولى بالتّصرُّف فيه.

٩-هذه الأخبار المتلاحقة التي رأيناها تتمازج وتتلاحم، والتي قام بها خبر"عباد الرحمن" تُكوِّن في النّهاية صفةً واحدةً، وهي عبوديتهم لله ربّ العالمين، والله أعلى وأعلم.

وصلّى الله وسلّم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه. آمين

الباحث

سعيد إسماعيل الهلالي

المصادر والمراجع

- إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لشهاب الدِّين أحمد بن أبي بكر البوصيري (ملتقى أهل الحديث، موقع مكتبة المسجد النّبوي الشّريف).
- إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السُّعود (دار إحياء التّراث العربي، بيروت بدون تاريخ).
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشَّنْقِيطي(دار الفكر للطّباعة و النّشر و التّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥ م).
- إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدّين بن أحمد مصطفى درويش (المتوفى : ١٤٠٣هـ) دار الإرشاد للشّئون الجامعية ، حمص ، سورية ، دار اليمامة ، دمشق ، بيروت ، دار ابن كثير، دمشق ، بيروت ط. الرّابعة، ١٤١٥ هـ).
- الأعلام لخير الدين الزِّركلي(دار العلم للملايين، ط الخامسة عشرة ٢٠٠٢م).
- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي (دار إحياء العلوم، بيروت، ط الرابعة ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م).
- البرصان والعرجان للجاحظ تحقيق الدُّكتور محمد مرسي الخولي(موقع الوراق، الطَّبعة الأُولى ١٩٧٢م).

❖ البرهان في علوم القرآن للزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم(دار المعرفة،بيروت، لبنان، ط ثانية١٣٩١هـ).

❖ بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني(موقع مشكاة للكتب الإسلامية).

❖ بيان إعجاز القرآن للخطَّابي – ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق محمد خلف الله أحمد ود. محمد زغلول سلّام (طبعة دار المعارف بمصر، ط خامسة ٢٠٠٨م).

❖ تحفة الأحوذي بشرح جامع التّرمذي للمباركفوري (دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ).

❖ التّسهيل لعلوم التّنزيل لمحمد بن أحمد الغرناطي الكلبي (دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان١٤٠٣هـ =١٩٨٣ م).

❖ تفسير البحر المحيط لأبي حيّان، تحقيق الشّيخ عادل أحمد عبد الموجود والشّيخ علي محمد معوض وآخرين (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م).

❖ تفسير البغوي(معالم التّنزيل في تفسير القرآن) تحقيق عبد الرّازق المهدي(دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط أولى ١٤٢٠هـ).

❖ تفسير التّحرير والتّنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» للطّاهر بن عاشور (الدّار التّونسية للنّشر، تونس، ١٩٨٤ هـ).

❖ تفسير السّمرقندي(بحر العلوم)، تحقيق الدُّكتور محمود مطرجي(دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ).

❖ تفسير السّمعاني تحقيق ياسر إبراهيم وغُنيم عبّاس(دار الوطن، الرّياض، السّعودية، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م).

❖ تفسير الشَّعراوي(دار أخبار اليوم، موقع المكتبة الشّاملة).

❖ تفسير الصّنعاني تحقيق مصطفى مسلم محمد(مكتبة الرّشد، الرياض، ١٤١٠هـ)

❖ تفسير الطّبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" (دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥ هـ)

❖ تفسير العزِّ بن عبد السَّلام تحقيق الدُّكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي (دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م).

❖ تفسير القُرْطبي"الجامع لأحكام القرآن" تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيس،(دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ثانية ١٣٨٤هـ=١٩٦٤م).

❖ التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرّازي(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،١٤٢١هـ=٢٠٠٠م).

❖ التّفسير المنير للدُّكتور وهبة الزحيلي (دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ثانية، ١٤١٨هـ).

❖ التّمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لأبي عمر يوسف بن عبد الله القُرْطبي، تحقيق مصطفى أحمد العلوي ومحمد عبد الكبير البكري (مؤسسة القُرْطبة، موقع مكتبة المدينة الرّقمية).

❖ التّنبيه إلى شَرْحِ مُشْكِلِ أَبْيَاتِ الحَمَاسَةِ لابن جنّي، تحقيق الدُّكتورة سيدة حامد عبد العال والدُّكتورة تغريد حسن أحمد عبد العاطي إشراف ومراجعة د. حسين نصار(دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التّراث٢٠١٠م).

❖ الجنى الدّاني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي، تحقيق الدُّكتور فخر الدِّين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل(دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان ط أولى ١٤١٣هـ= ١٩٩٢م).

❖ جواهر البلاغة للسَّيد أحمد الهاشمي (ط دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط سادسة، بدون تاريخ).

❖ حاشية الشّهاب المسماة "عناية القاضي وكفاية الرّاضي على تفسير البيضاوي"(دار صادر، بيروت، بدون تاريخ).

❖ خزانة الأدب لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب(دار الكتب العلمية، بيروت،ط أولى ١٩٩٨م).

❖ خصائص التَّراكيب للدُّكتور محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، القاهرة ط ثانية.١٤٠٠هـ=١٩٨٠م).

❖ الدّر المصون في علم الكتاب المكنون للسّمين الحلبي(نسخ وتنسيق مكتبة مشكاة الإسلامية، موقع المكتبة الشاملة).

❖ الدُّرّ المنثور للسُّيوطي (دار الفكر، بيروت، لبنان،١٩٩٢م).

❖ دلالات التّراكيب للدكتور محمد أبو موسى(مكتبة وهبة، القاهر، ط ثانية ١٤٠٨هـ= ١٩٨٧م).

❖ ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التّبريزي تحقيق محمد عبده عزّام. (ط دار المعارف بمصر .ط خامسة، بدون تاريخ).

❖ ديوان أبي الطيّب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمي بالتّبيان في شرح الدّيوان ،ضبط مصطفى السّقا، وإبراهيم الإبياري، وعبد الحفيظ شلبي (دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ).

❖ ديوان عمرو بن كلثوم جمع وتحقيق وشرح الدّكتور إميل بديع يعقوب(دار الكتاب العربي،ط ثانية ١٤١٦هـ=١٩٩٦م).

❖ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني للألوسي(دار إحياء التّراث العربي، بيروت، بدون تاريخ).

❖ زاد المسير في علم التّفسير لابن الجوزي (المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٤هـ).

❖ سُبُل السَّلام للصّنعاني(مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط رابعة، ١٢٧٩هـ=١٩٦٠م).

❖ سنن التِّرمذي تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين (دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، بدون تاريخ).

❖ سير أعلام النُّبلاء للذهبي تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف شعيب الأرناؤوط(مؤسسة الرِّسالة، ط ثالثة، ١٤٠٥ هـ=١٩٨٥م).

❖ شرح أدب الكاتب لابن الجواليقي تقديم السيد مصطفى صادق الرّافعي(مكتبة القدسي،القاهرة، ١٣٥٠ هـ).

❖ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي (طبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ١٩٦٧م).

❖ شرح السُّنة للحسين بن مسعود البغوي تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد زهير الشّاويش(المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط ثانية، ١٤٠٣هـ =١٩٨٣م).

❖ شرح مشكل الآثار لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطّحاوي تحقيق شعيب الأرنؤوط(مؤسسة الرسالة، بيروت،ط أولى، ١٤١٥ هـ = ١٩٩٤ م).

❖ شرح المفصّل للزمخشري تأليف ابن يعيش(دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط أولى، ١٤٢٢هـ =٢٠٠١م) .

❖ شُعَب الإيمان للبيهقي تحقيق الدُّكتور عبد العلي عبد الحميد حامد(مكتبة الرُّشد بالرِّياض، ط أولى، ١٤٢٢هـ=٢٠٠٢م).

❖ شعر الأحوص الأنصاري، جمع وتحقيق عادل سليمان، تقديم د .شوقي ضيف (مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ثانية ١٤١١هـ=١٩٩٠م).

❖ صحيح البخاري تحقيق مصطفى ديب البغا(دار ابن كثير، اليمامة، بيروت ط ثالثة، ١٤٠٧ هـ =١٩٨٧م).

❖ صحيح ابن حبَّان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط (مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ثانية، ١٤١٤هـ =١٩٩٢م).

❖ صحيح مُسْلِم " الجامع الصّحيح" (دار الجيل ، دار الأفاق الجديدة ، بيروت، بدون تاريخ).

❖ طبقات فحول الشّعراء،محمد بن سلام الجمحي،تحقيق محمود محمد شاكر (دار المدني،جدة، بدون تاريخ).

❖ علم المعاني للدُّكتور بسيوني فيُّود(مؤسسة المختار للنّشر والتّوزيع بالقاهرة، ط ثانية، ١٤٢٥هـ =٢٠٠٤ م).

❖ فتح القدير الجامع بين فنّيْ الرّواية والدّراية من علم التّفسير لمحمد بن علي الشّوكاني (دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ).

❖ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرَّيب للطِّيبي تحقيق مجموعة من الباحثين(مجموعة رسائل بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة).

❖ في ظلال القرآن لسَيّد قُطْب(دار الشُّروق، القاهرة وبيروت، ط العاشرة، ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م).

❖ الكتاب لسيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون(دار الجيل،بيروت، ط أولى، بدون تاريخ).

❖ الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل للزّمخشري تحقيق عبد الرّزاق المهدي (دار إحياء التّراث العربي، بيروت، بدون تاريخ).

❖ كنز العمَّال في سُنَن الأقوال والأفعال لعلاء الدِّين الهندي البرهان فوري تحقيق بكري حياني وصفوت السَّقا(مؤسسة الرِّسالة، ط خامسة، ١٤٠١هـ=١٩٨١م).

❖ لسان العرب لابن منظور المصري تحقيق الأساتذة: عبد الله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشّاذلي (ط دار المعارف، مصر، بدون تاريخ).

❖ المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمد (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م).

❖ مُسْتخرج أبي عوانة الإسفراييني النَّيسابوري(موقع المكتبة الشاملة).

❖ مسند الإمام أحمد تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون (مؤسسة الرِّسالة، ط أولى، ١٤٢١هـ =٢٠٠١م).

❖ مسند البزّار"البحر الزّخّار"تحقيق د محفوظ الرّحمن زين الله(مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم، بيروت، المدينة ط أولى١٤٠٩هـ).

❖ مصاعد النّظر للإشراف على مقاصد السُّور للبقاعي تحقيق الدُّكتور عبد السّميع محمد أحمد حسنين (مكتبة المعارف، الرياض، ط أولى ١٤٠٨هـ=١٩٨٧م).

❖ المطوَّل لسعد الدّين التّفتازاني (مطبعة محرم أفندى البوسنوى ١٣٠٤هـ) ٠

❖ معاهد التّنصيص على شواهد التّلخيص للشّيخ عبد الرّحيم بن أحمد العباسي تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد(عالم الكتب ، بيروت ١٣٦٧هـ= ١٩٤٧م).

❖ المعجم الكبير للطّبراني تحقيق حمدي عبد المجيد السَّلفي(مكتبة العلوم والحكم، الموصل، ط ثانية ١٤٠٤هـ = ١٩٨٢م).

❖ معرفة الصَّحابة لأبي نعيم الأصبهاني (موقع المكتبة الشَّاملة).

❖ مغني اللَّبيب لابن هشام، تحقيق وشرح الدُّكتور عبد اللَّطيف محمد الخطيب(السِّلسلة التُّراثيّة ، الكويت، بدون تاريخ).

❖ مفردات غريب القرآن للرّاغب الأصفهاني (كتاب الجمهورية . دار التّحرير للطّبع والنّشر)٠

❖ المفصل في صنعة الإعراب لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري،تحقيق د.علي بو ملحم (مكتبة الهلال، بيروت، ط أولى ١٩٩٣م).

❖ نظم الدُّرر في تناسب الآيات والسُّور للبقاعي(دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة ط ثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م).

❖ النّكت في إعجاز القرآن للرّماني–ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن– تحقيق محمد خلف الله أحمد والدُّكتور محمد زُغلول سلّام (ط دار المعارف، مصر، ط خامسة ٢٠٠٨م).

❖ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان لابن خلّكان تحقيق إحسان عباس (دار صادر، دار الثقافة، بيروت ، بدون تاريخ).

فهرس الموضوعات

	الموضوع	الصفحة
	-المقدمة	
	-التمهيد:	
	١-آيات وصف عباد الرحمن في سورة الفرقان.	
	٢-بين يدي عباد الرحمن وأوصافهم.	
	-المحور الأول:من أسرار التعبير القرآني في وصف عباد الرحمن.	
	قوله تعالى:"وعباد الرحمن".	
	أوصاف عباد الرحمن:	
	الصفتان:الأولى والثانية:التواضع والحلم.	
	الصفة الثالثة:التهجد لربهم ليلاً	
	الصفة الرابعة:الخوف من عذاب الله.	
	الصفة الخامسة:الاعتدال في الإنفاق.	
	الصفات:السادسة والسابعة والثامنة:التنزه عن الشرك وقتل النفس والزنا.	
	الصفتان: التاسعة والعاشرة:التنزه من شهادة الزور والإعراض عن اللغو.	
	الصفة الحادية عشرة:الإقبال على الله والحرص على العمل بأوامره.	

	الصفة الثانية عشرة:الابتهال إلى الله سبحانه.	
	جزاء من اتصف بصفات عباد الرحمن.	
	-المحور الثاني:من ملامح الإعجاز في الآيات.	
	١-مناسبة الآيات لما قبلها.	
	٢-بناء أوصاف عباد الرحمن على اسم الموصول.	
	٣-عطف الأوصاف بالواو.	
	٤- عرض الأوصاف بصيغة الجمع.	
	٥-ترتيب الأوصاف.	
	-الخاتمة.	
	-فهرس المصادر والمراجع.	
	-فهرس الموضوعات.	